366

HARLEQUIN

روايات أحلام

عروس الصقر

جين بورتر

www.elromancia.com
مرموريـة

عروس الصقر

رفضت الأميرة نيكوليت دوكاس أن تدع شقيقتها تتزوج زواجا مدبرا من رجل لا تعرفه . السلطان مالك نور . فسافرت إلى مملكته البعيدة منتحلة شخصية أختها . لكي تعلن له أن اتفاقهما على الزواج قد ألغي !

لكن ما لم تتوقعه الأميرة هو أن تجد استعدادات الزفاف قد أنجزت وأن مالك سلطان فاتن إلى حد مؤلم !

هو اعتبرها عروسه الموعودة وهي تعيش كل يوم صراعا بين افتتانها به وخوفها من افتضاح أمرها ...

فكيف سيثأر السلطان لكرامته عندما يكتشف حقيقتها !

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-320-5

تمهيد

- لن تذهبي إلى هناك!

رمت الأميرة نيكوليت المخطوطة الكبيرة الحجم في سلّة المهملات وتابعت تقول: «سوف تلتقطين سمّاعة الهاتف وتقولين للسلطان، إنك لن تقومي بهذا الزواج البريدي المقرف مرة أخرى. بحق السماء شانتال، إنك امرأة.. ولست ضحية بشرية!».

التوى فم شانتال لكن الابتسامة لم تصل إلى عينيها أو إلى تعابيرها المشدودة بتوتر.

- إنه ثري، نيكول. وهنالك فرصة بأن يشتري حرية ليلي، وإذا كانت الطريقة...

- إنها ليست الطريقة المناسبة! ليست كذلك قطعاً. أنت بالكاد تعافيت من ذلك الزواج الجهنمي، فكيف بإمكانك التفكير بالقبول بآخر؟

- لأن بلادنا تحتاج إليه، شعبنا يحتاج إليه.

انخفضت كتفا شانتال النحيلتين، كما انخفض صوتها: «ابنتي تحتاج إليه».

موقف شانتال المستسلم كاد يقتل نيكول. شعرت أن أختها قد فقدت عنفوانها، وقوتها وشجاعتها. بدا واضحاً أن السنتين الأخيرتين قد أنهكتا الأميرة الأنيقة، وهي الحفيدة الكبرى للدوق الملك.

أجابتها نيكول بحدة: «وأنت لك حاجاتك أيضاً، تحتاجين إلى معاملة لطيفة كما تحتاجين إلى الحب والاحترام. زواج آخر مدبّر.. ومن زير نساء آخر.. سوف يحطمك ذلك بالتأكيد».

ظهر الانفعال بقوة على وجه نيكول. إذا كانت شانتال لا تستطيع القتال، فهي ستقاتل بدلاً منها.

- أعرف أنك تريدين مساعدة ليلي، لكن ابنتك بحاجة إلى القدوم إلى المنزل في ميليو، شانتال. إنها لا تحتاج إلى العيش في بلد أجنبي آخر، مع ثقافة أخرى.

أجفلت شانتال وقالت: «أنت لا تقدمين لي المساعدة نيكول».

ركعت نيكول على ركبتيها ولفّت ذراعيها حول ساقي شانتال مقربة شقيقتها منها أكثر، ثم قالت: «دعيني أساعدك إذن. دعيني أقوم بشيء ما من أجل تغيير هذا الوضع!».

تقوس حاجبا شانتال البنيّان الدقيقان، ثم رفعت يدها إحدى خصلات شعر نيكول الشقراء الطويلة قائلة بسخرية: «هل ستتزوجين السلطان؟ هيا، نيكول.. أنت لن توافقي على القيام بزواج مدبّر. كما لا يبدو عليك أنك تفكرين بالزواج، فأنت ما زلت منغمسة في طيش الشباب».

ضغطت نيكول خدّها على ركبتي شانتال وقالت: «أنا لست منغمسة في طيش الشباب، أنا فقط أواعد...».

ضحكت شقيقتها وشدت خصلة الشعر المجعدة بقوة: «أنت لا تواعدين، حبيبتي. أنت تصطادين ثم تدمرين».

- تجعلينني أبدو كالجلاّد! أنا لا أدمّر الرجال. كل ما في الأمر هو أنني لم أجد الرجل المناسب بعد.

- وكيف ستجدين الرجل المناسب وأنت تواعدين النوع السيء من الرجال؟

- ليسوا كلهم سيئين.

- لكنك غالباً ما تسيئين الاختيار.

حدّقت نيكول بأختها مفكرة: «آه.. أختي الكبرى لا توافق على تصرفاتي!».

- أختك الكبرى تخاف عليك من الرجال الأوغاد.

في الواقع، ليس هذا ما تخشاه شانتال، فهي تعرف أن نيكول لا تخرج مع الأوغاد من الرجال، لكنها مع ذلك تخاف على سمعتها.

- وهل تشعرين أنت بنوع من المسؤولية تجاهي لتقدمي لي النصح؟

- أنت تعلمين أننا جميعاً نحتاج إلى زواج مناسب. هذه كانت خطّتنا منذ خمس سنوات».

ذلك أن مملكتهن تتألف من جزيرتين صغيرتين في البحر المتوسط؛ ميجيا وميليو. وسوف يتم تقاسمهما بين فرنسا وإسبانيا في نهاية هذا العام، فتعود ميجيا إلى فرنسا، وميليو إلى إسبانيا، إذا لم تتمكن أسرة الملك - الدوق من تسديد الضرائب والديون لهما.

شانتال كانت الأولى التي اقترحت أن تتزوج الأميرات زواجاً مدبراً. فإذا تمكّنت الأميرات الثلاث من إيجاد أزواج مناسبين يمكنهن أن ينقذن ميليو وميجيا، وذلك عن طريق دعم اقتصادهما بأموال جديدة، بحلفاء جدد، بسلطة جديدة. وهكذا بادرت شانتال إلى الزواج بالأمير أرماند تيوديه لاكروا، وكان زواجها هذا كابوساً منذ بدايته.

- أنت تظنين أن سمعتي السيئة ستمنعني من إيجاد الزوج المناسب، أليس كذلك؟

لو أن شانتال لاحظت لذعة المرارة في صوت نيكول لما استمرّت في تقديم النصائح إليها قائلة: «أنا لا أقول شيئاً عن سمعتك، لكنني أعرف أن علينا أن نتحمل مسؤولياتنا تجاه ميليو، فنجاحها يعتمد علينا. كما أن أمنها واستقرارها يأتيان من خلالنا، إذ إننا نمثل الجيل القادم».

- أنا لم أتخلّ يوماً عن واجباتي. أثناء غيابك توليت مسؤولية المؤسسات الخيرية التي تقع تحت رعايتك بالإضافة إلى تلك التي تدخل ضمن مسؤوليتي.

- المؤسسات الخيرية أمر لا بأس به لكن ما نحتاجه هو المال.. ملايين الدولارات. وأنت حظيت بعرضيّ زواج نيكول.

- كان ذلك منذ سنوات.

- بالضبط! ولا شيء بعد ذلك. لأن جميع الأمراء في أوروبا باتوا يعرفون أنك غير مهتمة بالزواج، فالصحافة لا يخفاها أي شيء.

www.elromancia.com

دوّت نبرة السخرية في أذني نيكول، وراحت آثارها تعتمل في صدرها.

- هل تقصدين أن ذلك السلطان، نور، لا يمكن أن يتقدم بطلب يد امرأة مثلي؟

- حسناً، إنه لم يفعل. أليس كذلك؟

حدّقت نيكول بشانتال للحظات طويلة وهي تفكر أنها لن تسمح لها بالذهاب إلى بَرَكة حتى لو كان الواجب هو ما يدفعها إلى ذلك. لقد عانت شانتال الأمرّين خلال السنوات القليلة السابقة، ولا أحد يعرف مثل نيكول أي جحيم عاشته. حتى شقيقتهما جويل لا تعلم إلا القليل عن الأذى الذي تعرضت له شانتال على يد زوجها السابق. وقالت نيكول بعد لحظات: «ما من سبب يجبر أياً منّا على الزواج من السلطان. يمكننا حمله على مساعدتنا دون أن نخسر حريتنا. وإذا أردت الحقيقة، نعم، أنا أقدر حريتي كثيراً».

واشتبكت نظراتها بنظرات شانتال: «سوف نحرر ليلي، ونعيدها إلى المنزل».

هزّت شانتال رأسها: «جدّاها لن يسمحا لها مطلقاً بالمغادرة».

تأملت نيكول شقيقتها ملياً وقالت: «سوف يفعلان ذلك إذا ما ضغطنا عليهما بصورة جيدة.. إذا أصر على ذلك الملك نور. أنت قلت إنه ذو نفوذ واسع».

تمتمت شانتال: «وهو ثري».

- إذن سوف أذهب إلى الملك نور وأطلب مساعدته. لن يرفض مساعدة عروس المستقبل. أليس كذلك؟

- نيكول...

- سوف أذهب مدعية أنني أنت. سوف أجعله يقع في حبي...

- نيكول...

- إنه رجل، شانتال. وأنا أعرف كيف أتصرف مع الرجال.

- لن ينجح ذلك. لن تتمكني من إقناعه بأنك أنا، فأنت شقراء وأنا سمراء..

- سأصبغ شعري، وبما أنني حنطية البشرة سوف أبدو شبيهة بك.

وفجأة راحت نيكول تضحك وقد شعرت بقوتها: «سوف أتسلل إلى الداخل ثم إلى الخارج، ولن يعلم مطلقاً ما الذي يجري».

- آه، نيكول. ما سيجري هو عبارة عن كارثة!

علّقت نيكول باعتداد واضح: «ليس إذا تصرفت بذكاء. ثقي بي، يمكنني القيام بذلك. سوف أضع خطة محكمة، وأنت تعرفينني شانتال، عندما أصمّم على شيء لا بد من أن أحصل عليه».

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة

١ ـ في مواجهة الصقر

وقف الملك مالك رومان نور، سلطان بَرَكة، على رصيف المرفأ القديم. ذلك الرصيف الذي بني منذ سبعمئة سنة تقريباً، في ظل قلعة يعود بناؤها إلى القرن السادس عشر، وراح يراقب اليخت الملكي الذي يقترب من الميناء والذي ترفرف فوقه الأعلام ذات اللونين الخمري والذهبي.

ها هي أميرته قد أتت...

انخفضت رموشه الكثيفة ما إن سمع الجوقة الملكية تردد أغنية ترحيب. وراح يتساءل عما تفكر به الأميرة الجميلة الآن، والتي تركت بلادها من أجله. إنها تعيش في عالم غربي وعالمه شرقي، لا بد أنها تشعر ببعض الخوف، فهو يشعر بالخوف من أجلها أيضاً. لقد أتت لتعيش في عالم يختلف تماماً عن عالمها، ولن تكون حياتها مماثلة لما كانت عليه إطلاقاً. أتراها تعرف ذلك؟

وقفت نيكوليت فوق الأرض الخشبية اللامعة على ظهر «النجم الملكي» وهو يخت الدوقية، وقد أطلقت جدتها هذا الاسم عليه. رفعت رأسها الذي بات الآن يعلوه شعر أسود، وأصغت إلى صوت رفرفة الأعلام التي تلعب بها الريح بعد ظهر ذلك اليوم الحار. ومع ذلك شعرت أن جسمها يرتجف لشدة التوتر.

إنها مصممة ومركزة تماماً على هدفها وهي تعلم ما الذي تفعله. لا بد أن تنجح خطتها، فما من سبب يجعلها تفشل. لقد أتت إلى بَرَكة مدّعية أنها شانتال وأنها مدفوعة بقرار الزواج من السلطان، وما إن تصبح شانتال وليلي حرتين وتصلان إلى أميركا حتى تتخلّص هي من مشروع الزواج هذا. إنها خطة بسيطة وعملية.

حدّقت إلى البعيد بعينين ضيقتين، فلاح لها السور الحجري الضخم لمدينة أتيك

عاصمة بَرَكة. بدا لها أن هذا السور الحصين الذي يرتفع في مواجهة البحر يعود إلى عدة قرون خلت. وهو يحمي المدينة من أمواج البحر وعصفات الرياح كما يرد عنها غزوات الجيران الطامعين.

جذبت الوشاح الذي يغطي رأسها وقرّبته من وجهها ليغطي فمها وأنفها. ثم راحت تتأمل المرفأ الذي يلوح لها من بعيد وتلك البقع الخضراء التي هي عبارة عن أشجار نخيل تظلل أسوار المدينة القديمة ذات اللون الأبيض الساطع. لبرهة من الوقت، تغلب فضولها على ما تشعر به من توتر. أهذا هو المكان الذي ستمكث فيه خلال الأسبوعين القادمين؟ هل يعيش السلطان في هذه الجهة من مدينة أتيك؟ أم أن قصره يقع في مكان ما... في الداخل محاطاً بعدد من الكثبان الرملية المنتشرة في الصحراء؟

وفيما تركزت نظراتها على الأفق البعيد، تناهت إلى مسامعها أصوات الموسيقى. فحدّقت جيداً إلى الحشد الغفير الذي تجمع فوق الأسوار؛ مئات من الأشخاص قد احتشدوا في انتظارها. وفكرت أن من الصعب التسلل من القصر وإليه بوجود هذا الجمع من الناس.

أمضت نيكول طيلة الأسبوع الماضي وهي تبحث على شبكة الإنترنت في أرشيف الصحف. وبعد أن قامت بأبحاثها عرفت الكثير عن الملك مالك رومان نور: إنه رجل وسيم منغمس في الملذّات ولا يمكن إصلاحه. بدت وسامته واضحة في تلك الصور القليلة التي تمكّنت من العثور عليها، فهو ذو صلابة رجولية، شعره كثيف، وجاذبيته واضحة.

بدا السلطان مالك نور، على صفحات المجلات التي تهتم بأخبار المشاهير كازانوفا حقيقي. وبحسب المصادر المقربة منه، فإن السلطان مالك نور هو سيد الإغواء وهو يحتفظ لنفسه بالعديد من العشيقات.

حسناً، إنه مستهتر من الطراز الأول ومعتاد على اتخاذ العشيقات. أما شانتال، وبعد التجربة التي مرت بها مع زوج متسلّط وخائن، فإنها لا تحتاج بالتأكيد إلى آخر لا يستطيع الوفاء بعهود الزواج والبقاء مخلصاً لها.

صرّت نيكول على أسنانها. تحتاج شانتال إلى أمير حقيقي مخلص، لا إلى زوج مغامر قد يخونها كلما سنحت له الفرصة.

ملأت هتافات الجماهير الفضاء من حولها، ما جعلها تشعر بالانزعاج. أسبوعان، ثلاثة أسابيع.. لن تقبل بيوم أكثر من ذلك. هذا ما قالته لنفسها وهي تحاول السيطرة على مزاجها المكر. سوف يسافران إلى الولايات المتحدة الأميركية في أقرب وقت ممكن، وسوف تقترح أن يتم الزواج في مدينة والدتها. ستقترح زواجاً مختصراً وشديد الخصوصية، ولن تلبث أن تطلب فسخ ذلك الزواج.

إذا اتقنت لعب دورها بشكل جيد، فتمكنت من تملّق السلطان ولفت انتباهه، كما تفعل عادة مع الرجال، فلن يتعدى الأمر كونه مغامرة قصيرة الأمد.

ظهر القبطان إلى جانبها قائلاً: «سمّو الأميرة، لقد وصلنا».

- جيد.

- سوف نرسو قريباً. هل أنت مستعدة للنزول إلى الأرض؟

- نعم.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تنظر إلى وجه القبطان أندرسون الذي اعتاد مواجهة البحر والرياح، وقد بدت الغضون حول عينيه أكثر عمقاً لشدة تحديقه بالشمس سنوات وسنوات.

- هل تسمح لي بأن أشكرك على خدماتك الوفية أيها القبطان؟ لقد كنت حقاً رائعاً.

انحنى الرجل قائلاً: «ذلك من دواعي سروري، يا سمّو الأميرة. سوف نترقب عودتك إلى البلاد بفارغ الصبر».

سارت نيكول بهدوء فوق الممر، على وقع أصوات الآلات الوترية والطبول والدفوف، وما إن وصلت إلى منتصف المسافة حتى تناثرت عليها قصاصات الورق الملون وأوراق الأزهار المختلفة الألوان. بدا الأمر وكأنها تدخل إلى عالم من الأحلام.. الموسيقى.. الألوان.. روائح العطور العابقة في الهواء. وساور نيكول إحساس قوي بأن هذا العالم الغريب سوف يبهرها بسحره وأسراره.

ما إن وصلت إلى نهاية الممر حتى راح الوقت يمر ببطء. وجوه مشرقة، أناس يهتفون ويصفقون ترحيباً، لكن ذلك كله لا يبدو حقيقياً. شعرت بالحرارة تلسعها والرطوبة تطبق على أنفاسها، وامتلأت أذناها بهتاف الجماهير المرتفع والملحّ. لجزء من الثانية غشي بصرها ولم تعد ترى إلاّ مزيجاً من اللونين البرتقالي والقرمزي، ولم تعد تسمع إلا أصواتاً حادة متنافرة. رمشت بعينيها محاولة إزالة الغشاوة عنهما علّها تحظى بصفاء الذهن من جديد. تمسّكت بالسياج المحاذي للممر وهي تحاول إخفاء توتر أعصابها، فذلك أمر لا يليق بفتاة مثقفة مثلها. ثم أمرت نفسها: استعيدي تركيزك، حاولي إيجاد وجه محدّد في ذلك الحشد، حافظي على تماسكك وصلابتك.. وهذا ما فعلته.

رأت بين الوجوه وجهاً مميزاً، إنه وجه رجل. وحاز هذا الرجل على اهتمامها على الفور، وجعل النبض يتسارع في شرايينها. إنه رائع! كانت هذه العبارة الأولى التي طرأت على ذهنها. رائع إلى حد رهيب! أعجبها ذلك الوجه القوي الداكن الذي يبدو خلف نظارتيه الشمسيتين، وذلك الشعر الكثيف الذي يعلو جبينه العريض. وقد زادت من وسامته بذلته السوداء الأنيقة والقميص البيضاء المفتوحة عند العنق. بدا الرجل مرتاحاً، هادئاً، ومختلفاً عن الآخرين.

تعلّقت نظرات نيكول به. كانت نظارتاه تحجبان عينيه ما أضفى عليه جواً من الغموض. حاولت أن تتخيّل لون عينيه، داكنتان؟ بنيّتان؟ أم ربما ذهبيتا اللون؟ ذلك ليس مهماً حقاً، خاصة مع ذلك الشعر الكثيف المتموج وذلك الوجه الوسيم. بدا فكه عريضاً كجبينه، وأنفه طويلاً قليلاً.

رفع الرجل نظارتيه عن عينيه ما جعل نيكول تشهق قليلاً وقد أذهلتها تعابيره. إنها متغطرسة، فخورة، ومليئة بالتحدي. بدا كرجل يشعر بمتعة القتال من أجل تحقيق أهدافه. حسناً، هي أيضاً تشعر بمتعة في القتال من أجل أهدافها. لا شيء يجعلها تشعر بالسعادة، كما يجعلها اهتمام أحدهم بها وتقديره لأنوثتها، حتى لو أظهر لها نوعاً من التحدي.

لكنها الآن شانتال، كما ذكرت نفسها منهية بذلك أحلام اليقظة التي راودتها، كما أنها في بركة لمناقشة موضوع الزواج.

تمنّت نيكول لو أن السلطان يتجاوز كل هذه المراسم ويظهر أمامها على الفور. ساد السكوت للحظة، ثم تقدم نحوها رجل قصير القامة، بَدِين، ذو شاربين أسودين، قائلاً: «تَمو الأميرة شانتال ماري دوكاس؟».

- نعم.

انحنى الرجل قائلاً: «اسمحي لي بأن أقدم إليك جلالة الملك مالك رومان نور، سلطان بَرَكة وأمير أتيك».

تحرّك الحشد قليلاً ترقباً لما سيحدث، وكأنما توتر الجماهير قد انتقل إليها فأرسل إلى جسدها أسهماً لاذعة. وللجزء من الثانية، شعرت بالندم لتورطها في هذا الأمر بدلاً من البقاء في منزلها متجاهلة كل ما يجري. إلا أنها قوّمت كتفيها، وإذا بالحشد يتحرك ليفسح الطريق لذلك الرجل صاحب البذلة الداكنة اللون كي يتقدم نحوها. إنه هو! وصرخت في سرّها: كلا! ليس هو. أي شخص إلاّ هو!

لكن الرجل راح يتقدم نحوها ببطء وتكاسل، وشعرت نيكول بوهن في ساقيها. ابتلعت ريقها وهي تحاول تبين قسماته من خلف نظارتيه اللتين عادتا لتحجبا عينيه من جديد.

شعرت بجفاف في فمها، واجتاحتها موجة من الرعب. لقد رأت صوراً للسلطان على شبكة الإنترنت. حاولت أن تستعيد في ذاكرتها تلك الصور التي تفتقد إلى الوضوح، لتقارنها مع الرجل الذي يبدو أمامها، لكنها لم تنجح. لقد تخيلته أقصر قامة، أكثر بدانة، ومن السهل التلاعب معه وخداعه.. لكن هذا الرجل لا يبدو مطلقاً من النوع الذي يسهل التلاعب معه. انحنى الرجل القصير القامة حتى كاد رأسه يلامس الأرض ثم قال مرنّماً: «جلالة السلطان».

تسارعت ضربات قلبها وراحت ساقاها ترتجفان فتمتمت: «جلالتك؟» وسمعت نبرة الشك في صوتها. أما السلطان فخطا إلى الأمام مقرباً المسافة بينهما وراح يتفحصها للحظة طويلة سادهما الصمت. وكانت نيكوليت هي الأولى التي أشاحت ببصرها وراحت تنظر إلى الأرض تحتها كي تخفي ارتباكها. لكن السلطان لم يسمح لها بهذا الهروب، إذ أمسك ذقنها بأصابعه وعاد يحدق إلى وجهها. وعندما

شعر بالاكتفاء، كما يبدو، قال باقتضاب: «السلام عليكم».

جاء صوته عميقاً، حتى إنها بالكاد تمكنت من سماعه. وإذا بالرجل القصير القامة يتولى الترجمة وهو ينحني من جديد: «جلالته يلقي عليك التحية، وهو يرحب بك في بلده الحبيب بَرَكه، أرض الأحلام».

أرض الأحلام! إنه أمر مثير للاهتمام.

- هل تسمح بأن تخبر جلالته بأنني متأثرة جداً بسبب الترحيب الحار الذي قابلني به شعبه؟

أوصل المترجم الرسالة إلى السلطان قبل أن يستدير من جديد نحو نيكوليت قائلاً: «يعتقد جلالته أن من الأفضل اصطحابك بعيداً عن أشعة الشمس، فسيارته تنتظر هناك».

وأشار بيده إلى سيارة ليموزين سوداء اللون مركونة خلفهم، يحيط بها عدد من الحرّاس في ثيابهم الرسمية.

جلس المترجم على أحد المقعدين الطويلين داخل الليموزين، فيما جلست نيكوليت والسلطان الصامت على المقعد الآخر. خلال الرحلة القصيرة، لم تتبادل مع السلطان نور أي حديث، ومع أنه بالكاد قد نظر إليها، إلا أنها لم تشعر في حياتها بمثل هذا الارتباك بحضور أي رجل من قبل، كما تشعر الآن. كان يتنفّس ببطء وعمق وكأنه يمتلك الحق في كل ذرة من الهواء. أما عطره فقد دغدغ خياشيمها بخفته وجعلتها نكهة البهارات فيه ترغب في تنشُّق المزيد.

وبعد عدة لحظات قال المترجم متطوعاً: «سوف تصل حقائبك لاحقاً، لكن إذا احتجت لأي شيء قبل ذلك، ما عليك إلا أن تطلبي».

أومأت نيكول بهزّة من رأسها، وهي تشعر بالامتنان لوجود ذلك الوشاح الواقي فوق رأسها فهي تدرك أن خديها متوهجان من الحرارة كبقية أنحاء جسمها، وقالت: «شكراً لك».

وصلت السيارة إلى البوابات الخارجية للقصر، وسرعان ما اكتشفت نيكول أن قَصر السلطان هو عبارة عن قلعة تم تجديدها على الطراز الحديث. ما إن أصبحوا

خلف البوابة حتى بدت أمام أعينهم مدينة صغيرة، مليئة بالحدائق، والأفنية، والأبنية الحجرية البيضاء اللون التي تتميّز بأناقتها وفرادتها، والتي تحيط بها كلها تقريباً أعمدة رخامية بيضاء. قدم الحرّاس التحية للملك نوري وهو يقود نيكوليت والمترجم عبر الفناء الرئيسي للمبنى الرئيسي. بدا الحرّاس متألقين في ثيابهم الرسمية البيضاء، التي هي عبارة عن بنطلون وقميص أبيض اللون فوقهما رداءٌ من اللون نفسه، مع حذاء أسود. كانت الأبواب مطلية بالذهب أما السقف فمرتفع جداً، بارتفاع طابقين على الأقل وقد غطّيت الجدران بلوحات من الموزاييك المطلي بالذهب والبرونز.

شعرت نيكوليت بالرهبة وهي تتبع السلطان نور إلى صالة استقبال أنيقة، فُرِشت أرضها الرخامية بسجاد قرمزي اللون. أشار لها السلطان كي تجلس على أحد المقاعد المنخفضة في وسط الغرفة. جلست نيكوليت وهي تشعر بالامتنان على حافة المقعد الذي تغطيه وسائد حريرية ذات لون ياقوتي. سألها المترجم وقد دخلت إلى الصالة خادمة تحمل صينية: «أتودين تناول القهوة؟».

دغدغت رائحة القهوة الطازجة أنفها، وفاض ريقها وهي تفكر أنها الآن بأمس الحاجة إلى هذا الشراب المقوّي. فأجابت: «نعم، من فضلك».

ظل السلطان نور واقفاً وهو يحدق بنيكوليت بتركيز جعلها تشعر بالتوتر. ثم كسر الصمت بكلامه، فجاء صوته عميقاً وناعماً. وشرح لها المترجم كلماته: «جلالته يسأل إن كانت رحلتك مريحة وآمنة».

أومأت نيكوليت مجبرة نفسها على إظهار ابتسامة هادئة: «نعم. شكراً».

وأضاف السلطان: «هل واجهتك مشاكل أثناء الرحلة؟».

أصغت نيكول إلى صوته الذي غزا ذهنها، متوقفة ببطء عند كل مقطع من مقاطعه. إنه يملك صوتاً غير اعتيادي. صوت عميق، خشن، لكنه مخملي الوقع. ومرة أخرى راح نبضها يتسارع، وبدا كأن قلبها يواجه صعوبة في الحفاظ على إيقاع منتظم لضرباته. وأجابت: «مرت الرحلة بهدوء تام».

وأدركت أن من الأفضل لها أن تختفي بسرعة من هذا المكان. فإذا كانت عاجزة

عن التحكم في صوتها حين تجيب على أسئلته، كيف ستتمكن من التحكُّم به شخصياً؟

التوت زاوية فم الملك نور بابتسامة مميزة، وقال: «الحمد لله».

أجبرت نيكول نفسها على النظر بعيداً، وقالت تذكر نفسها: تذكري أن لديه العديد من العشيقات، تذكري سمعته مع النساء. وسألت: «ما الذي تعنيه كلمة «الحمد لله؟؟».

- إنها تعني الشكر للرب.

ثم تكلم السلطان نور من جديد، وقام المترجم بتفسير كلامه لها: «جرت العادة هنا أن نشكر الله ونعبّر عن امتناننا له على ما ينعم به علينا».

رمقت نيكول الملك نور بنظرة سريعة، فإذا بشفتيه تلتويان بطريقة مميزة، ما جعل غمازتيه تبدوان واضحتين تحت عظمتي خديه. ثم سألت: «وهل حضوري إلى هنا هو نعمة؟».

فأجابها المترجم بالنيابة عن السلطان: «بدون شك».

رمقت الملك نور بنظرة أخرى ملؤها الحذر. لقد اعتقدت أنها تحضّرت جيداً لهذه الرحلة، ظنت أن خطتها لن تخطىء هدفها. أما الآن، والملك نور هنا، وهما الإثنان معاً.. لم يعد الأمر كما تخيلته على الإطلاق.

جلس السلطان على أحد المقاعد الخفيضة القريبة منها، وعندما تطاول ليأخذ فنجان القهوة، كادت ذراعه الطويلة تلامس ركبتها، ما جعلها ترتجف في داخلها، وتشعر بالتوتر من جديد.

عاد السلطان يتحدث بالعربية مرة أخرى، وراحت نيكول تنقل نظرها بين الملك نور والمترجم. بدا وجه السلطان وسيماً من الناحية الجانبية، إنه رائع. رجل بكل ما في الكلمة من معنى.

- جلالته يبلغك عن سروره لوجودك هنا، ويقول لك إنه وشعبه قد انتظروا هذا اليوم بفارغ الصبر.

توترت أصابع نيكول وهي تمسك بفنجان القهوة، لكنها حاولت أن تحتفظ

بهدوئها. في الواقع، كان الملك يجلس متكئاً بارتياح، وعيناه الباردتان ذات اللون الفضّي المتموج باللونين الأخضر والرمادي تتأملانها، وكأنه يجدها مذهلة تماماً.

الحمد لله أن شانتال ليست هنا، إذ إن الملك نور سيتمكن من إغوائها بسهولة، فيتزوجها ثم يتخلى عنها في أقرب فرصة.

قالت بنبرة لبقة لا تخلو من الحذر: «أنا أتطلّع قدماً للتعرف على جلالته، ومناقشة أفكاري المتعلقة بالزفاف معه».

سألها المترجم: «أفكارك؟».

لم تستطع نيكول إخفاء عدم صبرها: «نعم، بالطبع. إنه زفافي، ولدي أفكار بشأنه».

ساد الصمت للحظة، ثم أمال الملك نور رأسه وانخفضت أجفانه وهو يتفحصها. راحت نظراته الباردة تتفحّص وجهها، متوقفة عند كل قسمة من قسماتها، متأملة انحناء عظامها وشكل شفتيها ونعومتهما. في هذا الوقت قام المترجم بشرح أفكارها للملك نور. ثم تكلم السلطان ونقل إليها المترجم فحوى كلامه: «جلالة الملك يتفهم أنك وصلت لتوّك وكل شيء يبدو جديداً وغريباً بالنسبة إليك. لكنه يطلب منك أن تثقي به بالنسبة لتفاصيل الزفاف إذ ستتم كلها وفقاً لتقاليد وعادات بلادنا».

– قل لجلالته من فضلك، إنني أود الوثوق به بهذا الشأن، لكن الزواج هو مسألة شخصية جداً، وأنا أُصر على المشاركة في التخطيط له.

– الملك يشكر اهتمامك، ويؤكد لك أن لا حاجة بك إلى القلق أو الاضطراب. وبما أن إجراءات الزفاف قد حدّدت، لا شيء يمكنك القيام به خلال الأسبوعين القادمين سوى الاسترخاء والتعود على أسلوب الحياة في بَرَكة.

لا شيء تقوم به خلال الأسبوعين القادمين سوى الاسترخاء! شعرت نيكول بالارتباك إزاء جواب الملك هذا، فسألته: «وما الذي سيحدث بعد أسبوعين؟».

أحنى المترجم رأسه قائلاً: «سيتم الزفاف، يا سمو الأميرة».

هذا لا يمكن أن يحدث! من المؤكد أن هناك مشكلة سببها اختلاف اللغات،

وهي ناتجة عن سوء الترجمة.

– أخشى أن هناك حلقة مفقودة هنا. هل تقول لي إن موعد الزفاف والتفاصيل المتعلّقة به قد حدّدت وانتهى الأمر؟

– نعم.

لم يمضِ سوى أقل من ساعتين على وجودها في بَرَكة، مملكة السلطان مالك نور التي تقع في شمال أفريقيا، وها هي الأمور تخرج عن سيطرتها بشكل كبير. ما الذي حصل لخطتها؟ ماذا عن إجراءات الزفاف الهادئة، الخاصة التي حلمت بإتمامها في أميركا؟

– وكيف حصل ذلك؟

أحنى المترجم رأسه بأدب وهو يقول: «لقد اختار جلالته يوماً مباركاً في المفكرة الدينية والثقافية».

نقلت نيكوليت بصرها من المترجم البدين إلى الملك نور الذي يجلس باسترخاء على الأريكة. سوف تكون الأمور أصعب مما تخيّلت. الملك نور هو من نوع الرجال الذين دأبت على تجنبهم دوماً، إنه ذكي، بارع، وهو أبعد ما يكون عن رجل يسهل التحكم به. استدارت نيكول نحو الملك لتنظر مباشرة في عينيه وتعبر له عن سخطها، ثم قالت بنبرة صارمة: «لكن الملك لم يأخذ مفكرتي الخاصة بعين الاعتبار. لا يمكنه أن يحدد موعداً للزواج دون استشارتي».

أومأ المترجم ثانية وغدت تعابيره أكثر جدّية، لكنه ظل يتكلم بتهذيب بالغ: «جرت العادة أن يستشير الملك رجال الدين في مثل هذه الأمور».

– إذن، فالملك هو شخص متدين!

لم يجبها المترجم على الفور، وبدا واضحاً أنه يبحث في ذاكرته عن الكلمات المناسبة ثم قال: «الملك هو الملك. إنه حاكم بَرَكة...».

وإذا بطبع نيكول يغلبها فقالت: «وأنا الأميرة شانتال من أسرة دوكاس الملكية».

إنها تكره التحدُّث إلى شخص ما عبر مترجم، لا سيّما إذا كان هذا الشخص ذا

صفة ملكية.

- ربما من الأفضل أن تذكّر ملكك بأن أيّاً من الإجراءات لن يتم إلا بعد موافقتي.

تردد المترجم وبدا أنه لا يرغب بترجمة كلماتها هذه. فتصلب فكّ نيكوليت وقالت: «قل له ذلك من فضلك».

قال المترجم مكرهاً: «جلالة الملك...».

تحركت في مكانها بنفاد صبر، ثم وضعت فنجان القهوة على الطاولة الخشبية المنخفضة، وهي تقول: «ربما كان قدومي إلى بَرَكة غلطة كبيرة. لقد افترضت أن الملك مالك نور رجل مثقف ومتحضر...».

وإذا بالملك يقاطعها قائلاً: «أتعنين غربي الطباع؟».

ثم قام ببطء عن الأريكة ليعود فيسيطر على جو المكان بأكمله. ارتجّى فك نيكول وشعرت في الوقت نفسه بتقلّص في معدتها. إنه يتكلم الإنكليزية إذن! بالطبع هو يتكلم الإنكليزية، فحين بحثت على شبكة الإنترنت، اكتشفت أنه أنهى دراسته في جامعة أوكسفورد. ومع ذلك سمح بإتمام تلك المراسم والمقدمات، وتلك المحادثة المربكة عبر مترجم. لقد جعل لقاءهما الأول يبدو كمقابلة عمل.

أمالت رأسها قليلاً، فسقط الوشاح الذي كان يغطيه إلى الوراء، ليكشف عن شعرها الأسود الطويل. وسألته: «لمَ علينا استخدام مترجم؟».

ظهرت في عينيه نظرة اعتذار خفيفة: «ظننت أن ذلك يجعلك تشعرين بالارتياح أكثر».

هذا ليس صحيحاً، فذلك يجعله هو أكثر ارتياحاً. صرّت نيكول على أسنانها، وذكرت نفسها بأن عليها أن تفكر بطريقة شانتال وتكون هي نفسها شانتال. لكن طريقة شانتال في التصرّف جعلتها تصبح أشبه بممسحة للأرجل. ومع ذلك، ذكرت نيكول نفسها، إنه يريد شانتال لا أنت.

كان السلطان يقف بانتظار كلامها، فراحت عيناها تقدحان شرراً، مع أنها حاولت جاهدة أن تستعيد ابتسامتها الواهية. أومأت برأسها كما تفعل شانتال

عادة، وقدرأتها عدة مرات تقوم بذلك في المناسبات الرسمية. ثم وقفت، وقالت من بين أسنانها: «يا لهذه المراعاة! عليّ أن.. أشكرك حقاً».

التوت شفتا الملك نور بابتسامة باهتة: «ذلك من دواعي سروري».

ثم رفع يده في إيماءة آمرة، وسرعان ما غادر المترجم الغرفة على إثرها. ها قد أصبحا كلاهما واقفين على مسافة قريبة من بعضهما البعض، ما جعل نيكول تشعر بعدم الارتياح. راح السلطان يتفحص تعابير وجهها التي تنم عن الغضب للحظات طويلة قبل أن يشبك يديه خلف ظهره ويدور حولها. ها هو يقوم بتفحص دقيق للبضاعة قبل إتمام الصفقة، كأنه يتفحص جملاً في البراري قبل أن يشتريه. هذا ما فكرت به نيكول، ولم يكن ذلك سهلاً عليها. وعاد يدور حولها مرة أخرى ويرمقها بنظرات شبيهة بنظرات صقر لا يفوته أي شيء.

قالت بصوت مخنوق: «هل حزت على استحسانك أيها الملك نور؟».

لكن سخريتها تلاشت مع تلاشي صوتها. وشعرت بالخوف، إذ إن ما ينتظرها ليس أسبوعاً من العطلة. خشيت على نفسها وليس على شانتال. فالملك نور لديه خطة، وخطته هذه سحقت خطتها تماماً. تذكرت ذلك وقلبها يضرب بسرعة جنونية.

٢ ـ أنا لست طفلة!

استمر الملك في تفحصه لها فأكمل دورته الثانية حولها قبل أن يتوقف قبالتها تماماً، وهو لا يبعد عنها سوى بضعة سنتيمترات. حبست نيكول أنفاسها وهي تحاول جاهدة أن تحافظ على توازنها وألا تجفل مبتعدة أو ترمش بعينيها، فعليها أن تخفي تماماً ردات فعلها مع أنه يثير أعصابها بشكل جنوني. بعد قليل قطع الملك نور ذلك الصمت الذي يسود بينهما ليقول: «أنت أطول قامة مما توقعت».

لقد ورثت نيكول طول قامتها عن والدها، كما ورثت عنه شعرها الأشقر. وطولها هذا كان يسبب مشكلة للعديد من الرجال. وقالت: «وأنت أيضاً».

ضاقت عيناه وقال مفكراً: «كما أن لون بشرتك يبدو أفتح أيضاً».

ثم هزّ كتفيه متابعاً: «لكن أعتقد أن الناس يبدون مختلفين على شاشة التلفزيون».

- هل خاب أملك؟

ارتفع أحد حاجبيه الأسودين: «وهل قلت ذلك؟».

شعرت نيكول بالحنق من جديد، ولم تفهم سبب ذلك. فالرجال لا يسببون لها الارتباك في العادة، كما أنهم لا يجعلونها تشعر بالسوء. إنها تعرف جيداً كيف تسيطر عليهم من خلال نقاط ضعفهم، لكن السلطان لا يبدو ضعيفاً أو مغروراً، ما يجعلها أقل قدرة على التعامل معه.

نظر مالك بهدوء إلى عينيها الزرقاوين الغاضبتين، وهو يفكر أن أميرته تملك جسماً رائعاً، كما تملك خدّين بارزيّ العظام. أين اختفى وجه شانتال المنضبط الملكي القسمات؟ هذا الوجه ليس وجه أميرة مطيعة، فالوجه الذي أمامه الآن،

مليء بالأحاسيس والشراسة. لا شك لديه بأن هذه المرأة يمكنها أن تكون قوية، قوية جداً. وسيكون غبياً إذا ما صدّق ما تقوله شفتاها الناعمتان الممتلئتان وخصلات شعرها الطويلة الملساء. وسألها، قاطعاً الصمت المليء بالتوتر: «ألم تحضري أحداً معك؟ خادماً أو سكرتيرة، أو أي شخص لينظم جدول مواعيدك؟».

هزّت نيكول كتفيها: «لم أظن أن ذلك ضروري، يا صاحب الجلالة. لقد ألغيت ارتباطاتي كلها لأتفرّغ لك تماماً».

- أرى في ذلك مراعاة لي.

فقالت برزانة: «هذا ما أحاول القيام به».

ثم أحنت رأسها، ما جعلها تغفل عن تعابير مالك التأملية. أما هو، فراح يفكر وهو ينظر إلى رأسها المنحني أنها تخطط لشيء ما. ليس الأمر أنها لا تتحمل كلفة المساعدين، لكنها تود أن تتخفى عن الأنظار ولم ترغب بأن يرافقها أي من مساعديها المألوفين للناس. وفكر أن الأميرة تلعب لعبة ما، بدون شك. وقال بنبرة متعاطفة: «بما أنك لم تحضري معك أحداً ليساعدك، يسرني أن أزوّدك بالمساعدين بنفسي. أفكر ببعض الأشخاص الذين تم تدريبهم بصورة جيدة وهم سيشكلون نوعاً من الحماية لك».

ذلك العمق وتلك النبرة المخملية في صوته أرسلت في كيانها موجات من الارتعاش.

- جلالة الملك، لست بحاجة إلى مساعدين، حقاً.

ضرب الملك باحتجاجها عرض الحائط وقال: «لديك جدول أعمال مكتظ أيتها الأميرة. أمامك مهمّات كثيرة ونشاطات جمّة، ومن المستحسن أن تحصلي على مساعدة لتنظيم مفكرتك وخزانتك على السواء».

احمر خدا نيكول. فهي لم تكن يوماً مهتمة بشؤون الموضة، وقالت: «في الواقع، لم أحضر معي سوى القليل من الملابس».

وحاولت إخفاء اضطرابها الداخلي بابتسامة مصقولة. إنه ليس من الرجال

www.elromancia.com

الذين تسهل مناقشتهم. وتابعت تقول: «ظننت أن هذه الزيارة مجرد زيارة تمهيدية، لمجرد التعارف، وتحديد موعد للزفاف..».

وضع الملك يديه في جيبي بنطلونه، فبدا كرجل خطير، ثم قال: «لكن الموعد قد حدد بالتأكيد. لقد ناقشنا الأمر..».

- كلا، جلالة الملك. نحن لم نناقش هذا الأمر مطلقاً.

سرّها أن تتمكّن من التحدُّث إليه بهذه النبرة الصارمة، فهي لم تسمح لأحد من قبل بأن يتعامل معها باستعلاء، وتابعت تقول: «لكنت تذكّرت ذلك لو أنه حصل».

أومأ دون اهتمام، ثم هزّ كتفيه قائلاً: «على أي حال، أعتقد أن أسبوعين هما مدة كافية، إذا ما أخذنا بالاعتبار أن كلينا نتوق لأن نسير قدماً في هذا الزواج. أول شخص من فريق المساعدين سوف تقابلينه هو المسؤولة عن تنظيم الزفاف..».

قاطعته نيكول قائلة: «أسبوعان من الخطوبة!».

شعرت أنها ممزّقة بين الرغبة في الضحك وبين الشعور بالسخط. هل فترة أسبوعين من الخطوبة تعدّ كافية لأميرة؟

- من المستحيل أن يتم التحضير للزفاف خلال أربعة عشر يوماً فقط.

- فترة الأسبوعين تبدأ يوم السبت ما يعني أن لدينا ثمانية عشر يوماً.

الهدف ليس أربعة عشر أم ثمانية عشر يوماً، الهدف هو عدم الارتباط بموعد للزفاف على الإطلاق..

- لدى أفكاري الخاصة بشأن الزفاف يا جلالة الملك، كما فكّرت ببعض الترتيبات.

- أحقاً؟

- نعم. بما أن أمي أميركية، فكّرتُ بأن نسافر إلى أميركا لإتمام الزفاف هناك.

وما إن رأت تعابيره المتشكّكة سارعت إلى القول: «لقد أملت بأن أتزوج في كنيسة الرعية التي تنتمي أمي إليها في باتون روج في مقاطعة لويزيانا».

تصلّب فكّاه وقال: «أنا لم أذهب من قبل إلى لويزيانا، وأنت؟».

- وأنا أيضاً. لهذا السبب أردت الذهاب الآن. أردت أن تحضر أسرة أمي...

- يمكنهم أن يحضروا إلى هنا للمشاركة في الزفاف.

- لكنهم...

وابتلعت ريقها بصعوبة، ثم تابعت: «.. فقراء، يا جلالة الملك. معظمهم لم يخرجوا خارج حدود مقاطعتهم، فكيف بالسفر في الطائرة إلى دولة أجنبية!».

- إذن، سوف نرسل إليهم طائرتي الخاصة. لقد حلّت المشكلة.

وسار السلطان باتجاه مكتب موضوع بالقرب من أحد الجدران البعيدة، فتناول شيئاً من درجه الأعلى وعاد نحوها وهو يتابع قائلاً: «هذا جدول أعمالك».

وناولها المفكّرة التي يحملها في يده: «كما ترين، سوف تكونين مشغولة جداً في المساعدة في تحضيرات الزفاف هنا، هناك أمور ستقومين بها لوحدك، وأخرى ستقوم بها معاً...».

قاطعته نيكول وهي تشعر بأن أصابعها تحترق من لمسة يده السريعة لها: «أيها الملك نور، أعذرني لأنني متلبّدة الذهن. لكنني لا أفهم لِمَا لا نستطيع مناقشة ما لديّ من أفكار تتعلّق بهذا الزفاف».

رفع الملك رأسه، لتقابل نظراته الباردة نظراتها. ثم قال بعد لحظة: «بالطبع يمكننا مناقشة ما لديك من أفكار، فأنا أظن أن علينا إدخال العديد من التقاليد التي تعتمدها أسرتك في مراسم الزفاف هنا. وهذا بالضبط ما أود أن تُطلعي مُنَظِّمَة الزفاف عليه. فسوف تلتقين بها في وقت متأخر من هذا اليوم...».

- اليوم؟

- الليلة.

وهزّ كتفيه متابعاً: «كي نطمئن إلى أن جدول أعمالك لن يسبب لك الإزعاج، يمكنك مناقشته مع مساعدتك والمسؤولة عن تنظيم حفل الزفاف. وذلك كي تكوني مرتاحة تماماً في تأدية ما عليك من واجبات، كما أن المرأتين ستجيبان عن أي سؤال تودين طرحه في ما يتعلّق ببرنامج نشاطاتك. أعتقد أنك ستجدينهما مفيدتين جداً

لك».

كبحت موجة من الذعر كادت تجتاحها. منظّمة حفل الزفاف، ومساعدة شخصية.. كم عدد المساعدين الذين ستحتاج إليهم؟

- أنا قادرة على الاهتمام بتحضيرات الزفاف بنفسي.

- أعرف أن لديك خبرة جيدة في تنظيم حفلات الاستقبال وما شابهها، لكنك ستصبحين زوجتي، وملكة بَرَكة. ولا حاجة لأن تصرفي جهدك على الاهتمام بمثل هذه التفاصيل، لذا أحضرت أكثر الناس خبرة واحترافاً في هذا المجال. أعلم أنك ترتاحين أكثر لمساعديك...

- لكنني لا أحتاج إلى مساعدين.

ابتسم لها ابتسامة لطيفة قائلاً: «بل تحتاجين، وسوف أساعدك للتغلّب على توترك هذا».

- أنا لا أشعر بأي توتر.

ابتسم لها ابتسامة أكثر لطفاً وقال: «بل أنت كذلك».

في الواقع، لقد كذّبت نيكول في ما قاله، فهي تشعر بتوتر كبير في هذه اللحظة. لكي تخفي القلق الذي تشعر به، فتحت المفكرة الجلدية وراحت تقلب صفحاتها، حيث طالعها العديد من الأسماء والمواعيد المدوّنة فيها: لقاء المساعدة الشخصية، الدرس الأول في اللغة العربية، القياس الأول لعباءة الزفاف، اختيار خاتم الزواج، الدرس الثاني في اللغة العربية، حفلة الخطوبة الأولى، درس في الثقافة، الدرس الثالث في اللغة العربية، جولة في المدينة برفقة الملك نور، الدرس الرابع في اللغة العربية... وهكذا دواليك إلى أن يحين موعد الزفاف.

ثمانية عشر يوماً من النشاطات، ثمانية عشر يوماً من الادّعاء بأنها شخصية أخرى، ثمانية عشر يوماً من التصرُّف على أنها ستصبح زوجة الملك نور...

- يبدو جدول أعمال مليئاً بالنشاطات وذلك بصورة يومية.

- بالضبط.

راح رأسها يدور. لقد فكر الملك بكل شيء، لقد وضع لها برنامج تدريب

مكثّف تحضيراً ليوم الزفاف. دروس في اللغة، دروس في التجميل، ظهور علني، نشاطات خاصة برفقة خطيبها..

- جلالة الملك نور...

صحّح لها بتهذيب: «مالك».

عادت تقول وهي تفكر من أين ستبدأ بشرح مخاوفها: «مالك، هل كل ذلك ضروري؟».

- سوف تصبحين ملكة البلاد.

- نعم، لكن يمكن تأجيل بعض هذه النشاطات إلى ما بعد الزفاف.

- من الأفضل أن تبدأي بالتعلّم قبل موعد الزفاف...

أعلمتها نبرة صوته أن لا مجال للنقاش في هذا الموضوع، وتابع قائلاً: «أتوقع أن تحملي بطفل مني في وقت قريب بعد زواجنا، وأنا أعلم أن النساء لا يستطعن القيام بالكثير من النشاطات أثناء الفترة الأولى للحمل. كل ما أتمناه أن أسهّل عليك حياتك كي تتمكني من التفرّغ للحياة العائلية بعد الزواج».

هذا بالتأكيد ليس جزءاً من خطتها... فخطتها تقضي بإنقاذ ليلي عبر ذهابها إلى أميركا، وليس التورط في البقاء في بَرَكة مع خاتم زواج في إصبعها وطفل السلطان في أحشائها. ومع أنها تحب الأطفال... أطفال الآخرين، إلاّ أنها ليست من نوع النساء الحاضنات اللواتي يشعرن بتوق إلى الإنجاب. أملت ألاّ تفضح نبرة صوتها ذلك الخوف الذي تشعر به حين قالت: «هل تفكر في إنجاب الأطفال مباشرة بعد الزواج؟».

- ألا ترغبين أنت بإنجاب المزيد من الأطفال؟

المزيد! آه، هذا صحيح. إنه يرى فيها أماً لأولاده، إذ يعرف أن شانتال لديها ابنة. فما الفرق إن أنجبت له خمسة أو ستة أولاد؟

- نعم، بالطبع. لكننا ما زلنا غريبين عن بعضنا البعض...

- لن نبقى كذلك في الأسابيع القليلة المقبلة.

ثم أومأ مشيراً إلى المفكرة التي تحملها في يدها بتراخ، وتابع يقول: «إذا راجعت

جدول مواعيدك، سوف تلاحظين أننا سنمضي فترة لا بأس بها من الوقت كل يوم. في بعض الأيام سوف نتناول العشاء بمفردنا، وفي أيام أخرى سنكون مدعوان معاً، وفي غيرها سنذهب إلى الأسواق لشراء الحاجيات الضرورية كسرير الزوجية على سبيل المثال».

سرير الزوجية! يا له من قدر أسوأ من الموت!

شعرت نيكول أن الدماء تختفي من وجهها. إنها لا تريد سرير زوجية، فهي لا تنوي مشاركة مالك ذلك السرير كزوج وزوجة. الإعجاب به هو شيء والزواج منه لبقية حياتها هو شيء آخر. لسوء الحظ، فإن الملك نور يرغب في الإسراع بالقيام بإجراءات الزواج وصولاً إلى الاحتفال بالزفاف وهو لا يترك لها أي مجال للخلاص. أليس هذا ما تنبأ لها به جدّها رايمي؟ ألم يكن يردّد دائماً أن نيكول سوف تلتقي يوماً برجل يكون نداً لها؟ فقد كان يقول: «ليس جميع الرجال من الصنف الذي يرتمي تحت قدميك ما إن تشيري بأصبعك. هناك رجال يمكن التحكم بهم وقيادتهم وهناك آخرون لا يقبلون إلاّ بتسلم زمام القيادة بأنفسهم».

راح مالك يراقبها، وهو يرى القلق واضحاً في عيني أميرته الزرقاوين. لم يرَ في حياته عروساً أقل حماسة منها إلى الزواج. إنه متفهم لمخاوفها وقلقها، فهو نفسه قد شعر بمثل تلك المخاوف وذلك القلق حين أدرك أن عليه أن يتزوج، فمسألة الوراثة أصبحت ملحّة بعد محاولة الاغتيال التي تعرّض لها العام الفائت. كما أن شقيقه الأصغر، خالد، لا ينوي مغادرة لندن ومع أن مالك لديه شقيقات وهؤلاء لديهن عدد من الصبيان الصغار، كما لديه أقرباء عديدين من الذكور إلاّ أن أياً من هؤلاء لم يبق في بَرَكة. وهكذا أصبحت مسألة الوراثة متعلقة به وحده، وبات بحاجة إلى وريث، وها هو قد اختار الأميرة دوكاس لتمنحه هذا الوريث.

- لا أريدك أن تشعري بالقلق.

ثم أضاف بنبرة مهدئة: «سوف أكون زوجاً مخلصاً ولن أتزوج امرأة أخرى، وسأكرّس نفسي للاضطلاع بمسؤولياتي كزوج وشريك وفي».

كاد رأس نيكول ينفجر، وراحت تلك الكلمات.. زوج.. شريك.. تطفو

في ذهنها المعذّب. ثم قالت وأصابعها الطويلة معقودة حول المفكرة: «معظم الملوك يستخدمون غرفتي نوم منفصلتين، أليست هذه هي العادة هنا؟».

- اعتاد والداي أن يتشاركا غرفة النوم على الدوام.

- آه!

وإذا به يعاجلها بالسؤال: «ألم يكن والديك كذلك؟».

إنها تفقد تركيزها، فالملك نور شديد الذكاء، سريع البديهة، ومباشر. إنه يتطرّق إلى مواضيع لم تشأ التحدث عنها حقاً.

- زواج والديّ كان زواجاً مبنياً على الحب.

لقد تزوج والداها على الرغم من إرادة جديها لوالدها، وجاء زواج والدها وهو الأمير المدلل من والدتها نجمة البوب الأميركي بمثابة صدمة لهما. وظن الجميع يومها أن هذا الزواج لن يدوم طويلاً، إلاّ أنه، وخلافاً للتوقعات، دام لمدة عشر سنوات. وقد ظل والداها سعيدين معاً، حتى قتلا في حادثة سير على الطريق البحري بالقرب من سان ترويز. ألقت نيكول نظرة سريعة على المفكرة في يدها. ثم قالت: «يبدو أنني سألتقي بمساعديّ بعد ساعة ونصف من الآن».

- بعد أن تأخذي قسطاً من الراحة وتنعشي نفسك، سوف يحضرون لك الشاي والسندويشات إلى غرفتك الخاصة. وسيكون لديك وقت كاف لأخذ قيلولة صغيرة.

فجأة، عاودها طبعها المشاكس، فراحت تقلب صفحات المفكرة الجلدية بعصبية: «أحقاً؟ هل أنت متأكد؟ لا أرى ذلك مدوناً في مفكرتي».

لم يخفض الملك نور بصره لينظر إلى المفكرة. بل وقف هناك بكل بساطة، وراح يراقبها. وبعد برهة قال: «أيتها الأميرة شانتال، إذا لم تكوني راغبة بهذا الزواج، ما عليك سوى أن تقولي ذلك».

نبرة السيطرة الهادئة التي تنبعث من صوته ملأت قاعة الاستقبال الأنيقة. شعرت نيكول بالخجل لأنها فقدت هدوءها تماماً، فأغلقت المفكرة الجلدية ببطء،

وضمتها إلى صدرها قائلة: «إني آسفة».

انتظر مالك إلى أن رفعت بصرها عن السجادة القرمزية اللون التي تمتد تحت قدميها، وقال: «أنا لا أصوب مسدساً إلى رأسك أيتها الأميرة، وهذا الأمر لا يتم بالإكراه. إذا لم تقتنعي بأنني عريس مناسب لك، لا تكملي الآن. فهذا هو الوقت المناسب لإلغاء جميع الخطط، وليس قبل أسبوع فقط أو ربما يوم فقط من موعد الاحتفال بالزفاف. لا زال هناك أسبوعان حتى موعد الزفاف، ونحن لم نقم بأي احتفالات علنية بعد. إذا كانت لديك أي تحفظات، أخبريني بها، فأنا لن أحاكمك. وأعدك بأنني لن أغضب منك أو أقسو عليك».

راحت كلماته ترن في أذنيها، وأكثر ما تذكرته منها هو قوله: إذا كان لديك أي تحفظات... بالطبع لديها تحفظات، بل هذا كل ما لديها. لا شيء مما يحصل هو حقيقي، لا شيء مما يتناقشان بشأنه سوف يتحقق. إنها منافقة... تقف هنا وتكذب عليه، بل إنها تخدعه عن سابق تصور وتصميم. لكن كيف يمكنها أن تقول له الحقيقة؟ إذا ما أخبرته من هي حقاً، ولِمَ هي في بَرَكة، سيقوم بفسخ خطوبتهما على الفور، ويتوقف عن تقديم المساعدة لها. وستذهب كل جهودها لتحرير ليلي وشانتال أدراج الرياح. كلا.. لا تستطيع أن تخبره بذلك. لا يمكنها التوقف عمّا بدأت به قبل أن يصلوا إلى أميركا وتتمكن من إبعاد شانتال وليلي إلى هناك بأمان، عندها فقط يمكنها أن تستقل الطائرة عائدة إلى بلادها.

بدا واضحاً أن مالك بدأ يفقد صبره، فقال بحثها بهدوء: «حسناً، ماذا؟».

أغمضت نيكول عينيها، وأجبرت نفسها على تجاهل كل شيء باستثناء وجه ليلي الصغير، ليلي.. إنها أشبه بفراشة صغيرة ضعيفة وحساسة إلى حد مؤلم. مجرد التفكير بليلي العالقة في لاكروا جعل نيكول تتميّز غضباً. كيف يستطيع الناس.. المجتمع.. أن يكونوا غير منصفين؟ يجب أن تنشأ الفتيات دون خوف أو تهديد، كما يجب أن تتوفر لهنّ الحماية.

فتحت عينيها، لتقابلا نظرات مالك القاتمة. وقالت: «تحفُّظي الوحيد هو أنني لا أرغب بأن أتزوج بعيداً عن أولئك الذين أحبهم».

كذب، كذب، كذب. إنها تود إتمام مراسم الزواج في أميركا فقط لأن أميركا بلاد واسعة، والناس في لويزيانا متعاطفون مع بعضهم البعض.. ولا شك بأن شبكة الأصدقاء القدامى وأقرباءها البعيدين سيوفرون غطاءً جيداً لشانتال وليلي ما إن تذهبا إلى هناك متخفيتين.

- سوف أشعر بالارتياح أكثر إذا ما أخذت بالاعتبار، أفكاري.. وطلبي.

حدّق مالك إليها للحظة طويلة، بعثت الحرارة في كيانها، قبل أن يحني رأسه قائلاً: «إذا كان هذا الأمر يعني الكثير لك، نعم. سوف آخذ أفكارك بالاعتبار، وأفكر أكثر بطلبك هذا».

شعرت نيكوليت بموجة مربكة من الارتياح تجتاحها؛ يمكنها القيام بذلك. هكذا حدّثت نفسها مشجعة. وقالت: «شكراً لك جلالة الملك».

- كوني واثقة بأنني أريدك أن تكوني سعيدة، فزواجنا أمر مميز. ويوم الزفاف سيكون يوماً وطنياً في بَرَكة، وسيتم نقل وقائع الاحتفال عبر شاشات التلفزيون. وهكذا سيتمكن شعبنا بأكمله من مشاركتنا الاحتفال.

- هذا ممتاز.

لن تضغط عليه أكثر من ذلك. مع أن جزءاً من ارتياحها قد تلاشى. إذ إن الوقوف إلى جانب السلطان والملكات بل الآلاف من أفراد شعبه يراقبونهما، لن يكون بالأمر السهل بالنسبة إليها. ومع ذلك قالت: «يا لها من فكرة مذهلة!».

التمعت نظرات عينيه الفضيتين: «شكراً لك. والآن دعيني أريك جناحك الخاص، فأنا واثق أنك تودين قضاء بعض الوقت لوحدك».

ما إن أصبحت في غرفتها، حتى أخرجت نيكول مفكرتها الخاصة من حقيبتها وراحت تنقّب في صفحاتها بسرعة، وهي تتفقّد الملاحظات التي دونتها؛ فنادق، سيارات أجرة، أرقام مصارف، أرقام هواتف، خرائط وسط المدينة في باتون روج والمناطق المجاورة لها. كل ما عليها هو أن تعمل على وصول الجميع إلى هناك.

لم يمض الكثير من الوقت حتى سمعت قرعاً على الباب، فاضطرت إلى إغلاق مفكرتها وإعادتها إلى مكانها في الحقيبة. مررت أصابعها في شعرها وتوجهت لتفتح

الباب، وسرعان ما وقع بصرها على مجموعة من النساء يقفن في الباحة أمامها. ها قد أتى فريق مساعداتها. أمضت النسوة ساعتين من الوقت وهن يتحدثن، ويقدمن أنفسهن إليها. وكل منهن تشرح لها كيف يمكنها أن تقدم لها المساعدة، وجميعهن يتكلمن لغة إنكليزية ممتازة.

المسؤولة عن تنظيم الزفاف امرأة شابة ومليئة بالحيوية، لكن لم تتح لها فرصة كبيرة للتحدث عن التفاصيل المتعلقة بالزفاف. علياء، المساعدة الشخصية لنيكوليت هي امرأة جميلة ذات شعر أسود وعينين لطيفتين، كما كان هناك عدد من الخادمات المخصصات للأميرة. كاد رأس نيكوليت ينفجر لكثرة ما سمعت من الأسماء والواجبات.. إنها لم تحصل في حياتها على هذا العدد من المساعدات.

عند الساعة التاسعة والربع، فتح باب غرفة نيكول من جديد، ودخلت امرأة شابة جذّابة ترتدي ملابس أنيقة هي عبارة عن عباءة ذات لون أخضر زمردي، أطرافها موشاة بتطريز ذهبي اللون. وما إن دخلت المرأة إلى الغرفة حتى وقفت النساء اللواتي يجلسن حول نيكول ثم انحنين قائلات: «أهلاً سيدتي».

بدت المرأة الشابة في مثل سن نيكوليت، اقتربت منها وعلى وجهها ابتسامة باردة ثم قالت: «آسفة على التأخير».

ووقفت أمام نيكول مباشرة للحظة وهي تتفحصها من رأسها حتى أخمص قدميها، وتابعت تقول: «أنا اللايدي فاطمة، قريبة السلطان، وأحد أفراد الأسرة المالكة. طلب مني قريبي أن أساعدك للتعرف على عاداتنا وتقاليدنا».

ومع أن كلمات فاطمة بدت مهذّبة إلاّ أن نيكول شعرت أن نبرة من التحفظ تشوب صوتها، اللايدي فاطمة لا نية لديها بأن تصبح صديقتها، لكن ليس عليها أن تشعر بالتهديد، فنيكول لا تنوي البقاء في بَرَكة بصورة دائمة. فما إن تصل برفقة السلطان إلى أميركا حتى تنتهي هذه التمثيلية.

أخيراً، غادرت النساء غرفتها قرابة منتصف الليل. فارتمت نيكول على سريرها وهي تشعر بالإنهاك. وفكّرت أن العديد من الناس باتوا متورطين في هذه المسألة. وكثرة الأشخاص قد توقع في المشاكل.

شدت قبضتها على غطاء السرير الحريري وهي تعلم أنها إن لم تكن فائقة الحذر، فسوف تجد نفسها عالقة في أتيك إلى الأبد، متزوجة من السلطان وأماً لأبنائه. أما جدها رايمي فسوف يطلق ضحكة عالية و هو يقول: نيكول تزوجت.. نيكول أصبحت مليكة بَرَكة، وحاضنة لأطفال السلطان.

في العادة، لم تكن نيكول تصحو من النوم وهي في مزاج سيء، لكن الأحلام التي راودتها هذه الليلة كانت حادة وسيئة. وفي الوقت الذي دخلت فيه إلى الحمّام الضخم المجاور لغرفتها، والذي يحتوي على مغطس كبير مكسو بالآجر الأبيض، كان الرعب قد تغلغل في عضلات جسمها ومسامه كلها.

فركت جسمها بالصابون المعطّر ثم غسلته ونشفته بسرعة قبل أن ترتدي ثيابها. عادة ما يكون ذهنها صافياً عند الصباح، أما الآن فلم تكن لديها أية أفكار أو أجوبة، ولا أي مجال ممكن للهروب مما هي فيه. وحتى لو أرادت الهرب؛ فكيف يمكنها الخروج من هنا بحق الجحيم؟

راحت تمشّط شعرها الداكن الطويل وتلفه على شكل كعكة أنيقة فوق رقبتها، وإذا بذلك الصوت الصغير في داخلها يقول لها: حسناً، إذا كنت حقاً تودين الهروب، يمكنك أن تعترفي له بالحقيقة. لكن إذا أخبرته بالحقيقة فسوف تبقى ليلي في لاكروا. إلا إذا... وقع الملك في حبك. آه، من المخجل أن تفكري باستغلال الرجل على هذا النحو. حسناً، لطالما وقع العديد من الرجال في حبك، ولم تشعري بالقلق من قبل على مشاعرهم المجروحة...

سمعت طرقاً على باب غرفتها، فشعرت بالارتياح لانتشالها من أفكارها تلك. أخذت أحد دبابيس الشعر التي تضعها في فمها وشكّته مثبتة به الكعكة التي لفّتها فوق رقبتها، ثم قالت: «أدخل».

دخل مالك إلى الغرفة قائلاً: «هل أقاطع شيئاً؟».

سحبت دبُوس شعر آخر من بين أسنانها وغرزته في شعرها قبل أن تجيب: «أنا فقط أصفف شعري».

بعد دخوله الغرفة، أقفل الباب خلفه: «لديك شعر جميل».

نبرة الصدق في عبارة المجاملة غير المتوقعة جعلت خدّيها يتوهجان. وقالت: «شكراً لك».

- لطالما أحببت لون الشعر هذا، وقد أعجبني بالأمس لون شعرك المتموج.

لم تعرف نيكول بما عليها أن تجيبه، لقد أحضرت قنينة صبغة شعر بنية اللون وصبغته بنفسها: «أنا أشعر بالإطراء، جلالة الملك».

وتابع يقول: «إنه أمر غريب، لكنني لم أكن يوماً منجذباً إلى الشقراوات».

هزّت نيكول رأسها، فانفلتت كومة الشعر التي تشكّل الكعكة والتي لم تثبتها جيداً بعد، فوقعت الدبابيس منها وانسدل شعرها فوق كتفيها، ثم قالت: «أنت لا تحب الشقراوات؟ لكن الرجال يحبون الشقراوات..».

- لا أريد أن أبدو متحيّزاً، لكن...

- لكن ماذا؟

- حسناً. من خلال تجربتي. وجدت أن معظم الشقراوات.. سطحيات، منهمكات في شؤونهن الذاتية. كما أنهن أقل ذكاء.

شعرت بالسخط لإطلاقه هذا الحكم السخيف على النساء استناداً إلى لون شعرهن. وإذا به يغير الموضوع قائلاً: «هناك سبب لحضوري الآن. بما أن شقيقتك اتصلت منذ قليل، فكّرت أن الأمر قد يكون ملحّاً».

- أيهما؟

- يمكنني أن أقسم أنها قالت إن اسمها شانتال.

- هذا مستحيل!

لا بد أن شانتال ارتكبت خطأ وذكرت له اسمها الحقيقي.

- بالضبط.

والتقت نظرته بنظرتها وهو يتابع: «فشانتال موجودة هنا».

- ربما قالت لك إنها جويل فبدا الاسم شبيهاً بشانتال.

- ربما.

- أو نيكول.

ولمحت بريق ابتسامة يلوح في عينيه كما ظهرت على شفتيه ابتسامة سخرية باردة. ما الذي يفكر به يا ترى؟ ما الذي يعرفه؟

أجابها وهو يبحث في جيبه ثم يخرج الهاتف الخليوي: «لم يبدُ الاسم شبيهاً باسم نيكوليت. بدت شقيقتك هذه متأنقة، متكلّفة. ومما سمعته عن شقيقتك نيكوليت لا أعتقد أنها هي».

سخريته جعلتها تشعر بالتوتر. إنه لا يعرف نيكوليت، ومع ذلك فهو يتكلّم عنها وكأنه هو نفسه أحد حكماء عصره. كان يحمل الهاتف في يده ويمد يده نحوها مستفسراً إن كانت ترغب في استخدامه: «ألا تودين الاتصال بها؟ ستجدين الرقم محفوظاً هنا».

وتساءلت نيكوليت، من تراه المتصّل؟ جداها لا يعرفان حتى أنها هنا.. إذن من الواضح أن أياً منهما لن يتصل بها. جويل تعرف أن نيكول مسافرة، لكنها تظن أنها تقوم بزيارة إلى لاكروا برفقة شانتال. لم يبق إذن إلاّ شانتال، لا بد أنها هي المتصلة. لكن نيكول لا ترغب بالاتصال بها بحضور الملك نور. لذا قالت: «سوف أتصل بها لاحقاً».

- قد يكون الأمر ملحّاً، ما عليك سوى أن تضغطي زر إعادة التشغيل.

حاولت نيكول ألاّ تنظر إليه وهي تأخذ الهاتف من يده، ثم تمر بقربه لتقف بالقرب من النافذة موجهة أنظارها باتجاه الفناء الداخلي الجميل. ضغطت على زر إعادة التشغيل، وسمعت رنين الهاتف، ثم سرعان ما وجدت نفسها تسمع صوت شانتال: «الحمد لله، إنك أنت».

لم تضيّع شانتال وقتها بالمقدمات أو بالتحية وتابعت: «أنا قلقة جداً عليك».

قالت نيكول كاذبة: «لا داعي للقلق، كل شيء على ما يرام».

- إذن، كيف تسير الأمور؟

- أنا بخير، صدقيني.

- هل تسبب لك بأية مشكلة؟

- كلاّ.

وألقت نظرة سريعة من فوق كتفها، فالتقت عيناها بعيني مالك. كان يراقبها باهتمام لا يخلو من التسلية.

- كيف حال ليلي؟

أخذت شانتال نفساً صغيراً، وقالت: «لقد وضعنا خطة. اتصلت بإحدى صديقات أمي، أندريا، ووافقت على مدّ يد المساعدة لنا ما إن نصل إلى باتون روج».

- هذا أمر جيد.

ساد الصمت للحظة على الطرف الآخر من الهاتف، ثم قالت شانتال بهدوء: «أقدّر ما تقومين به لأجلنا، مع أنني لست واثقة بأن هذا الصواب... لا زلت أظن أن هناك مخاطرة فظيعة بالنسبة إليك..».

قاطعتها نيكول: «لا داعي للأسف، أو للتفكير بالأمر مرة أخرى. أقوم بذلك من أجل ليلي. أنا أحبها يا عزيزتي، وأنت تعلمين ذلك».

- نعم، أعلم.

- حسناً.

شعرت نيكول بانقباض في قلبها. ما زال عليها أن تقوم بالكثير. بمجرد سماعها صوت شقيقتها، أدركت نيكول مرة أخرى مقدار الآمال التي تعلقها عليها. وتابعت تقول: «سوف نتحدّث معاً في وقت قريب».

انتهت المكالمة، وأعادت نيكول الهاتف إلى الملك نور قائلة: «شكراً لك. كنت على حق، فهذه المكالمة هامة».

- سمعتك تذكرين ابنتك، أرجو أن تكون بخير.

تذكّرت نيكول عيني ليلي الزرقاوين الواسعتين، المليئتين وأجابت: «نعم».

- متى ستنضم إلينا؟

دفعت بابتسامة متوترة إلى وجهها وقالت: «قريباً.. كما آمل».

أومأ الملك، ثم قال متردداً: «لن أراك ثانية حتى وقت متأخر من هذه الليلة، وأتخيّل أنك اطّلعت على مفكرتك اليوم. فهل لديك أسئلة بشأنها؟».

- أنا لست طفلة، يا جلالة الملك.

- لم أظن مطلقاً أنك كذلك.

شعرت بأن طبعها الحاد يكاد ينفجر، وقد ملأتها الانفعالات المتناقضة بشحنات من الغضب. فهي لم تشعر من قبل بمثل هذا الانجذاب إلى شخص، وهذا الشخص بالذات ليس مناسباً على الإطلاق لإقامة علاقة معه. فانفجرت قائلة: «إذن، لمَ أعدتني إلى نظام المدرسة دون استشارتي أو حتى سؤالي عن الأمر؟ هناك دروس متواصلة بدءاً من الصباح وحتى فترة بعد الظهر، وعلى أن أبدأ بعد خمس عشرة دقيقة بدرس في اللغة العربية يستمر لساعتين».

- لقد قمت بما هو ضروري فقط..

قاطعته نيكول بحدة: «اعذرني جلالة الملك، لكن هناك قرارات علي أن أتخذها بنفسي».

٣ ـ الأميرة المنتظرة

توقفت نظرات عينيه الفضيتين الباردتين على وجهها. ثم قال: «من الطبيعي أن يقوم الرجل بما هو أفضل من أجل امرأته».

شعرت نيكول بارتعاشة في عمودها الفقري؛ إمرأته! لكنها ليست امرأته، ولا نيّة لديها بأن تصبح كذلك. قالت: «يصعب على المرأة أن تحترم رجلاً لا يسمح لها باستخدام دماغها».

- إنه ليس تدريباً على ممارسة السياسة، أيتها الأميرة. ما أطلبه منك، بكل بساطة، هو أن تتعلّمي لغتنا وتقاليدنا..

- طيلة اليوم.

توتر فكّاه، وقال: «في الواقع، ذلك لا يشبه التعليم في المدرسة، فأنت ستتعلمين برفقة قريبتي فاطمة. وأنا أتوقع أن تصبحا، أنتما الاثنتان، صديقتين حميمتين رائعتين».

صديقتين حميمتين رائعتين! عادت نيكول بالذاكرة إلى الليلة السابقة، وإلى الترحيب الفاتر الذي قابلتها به فاطمة. إن السلطان يحلم بلا شك.

- نعم، لقد التقيت باللايدي فاطمة. لكن يا جلالة الملك، مشكلتي ليست مع المعلمة، بل مع الدروس نفسها. فأنا أشعر بالقلق، لأنه لم يمضِ على قدومي أربع وعشرون ساعة بعد، وها أنا قد فقدت...

وتوقفت عن الكلام قبل أن تتلفّظ بكلمة «السيطرة». لم تكن تشعر بالاستياء لأنها ستتعلّم لغة جديدة، بل لأنها فقدت السيطرة على حياتها بسرعة، بل على خطة الزواج، وما يحيط بها، حتى على استقلاليتها هي نفسها. ها هي، في أقل من أربع

وعشرين ساعة على قدومها، تشعر بأنها أحد الممتلكات بدلاً من كونها امرأة.

جاهدت نيكول كي تجد طريقة أكثر دبلوماسية للتعبير عمّا تشعر به، فقالت: «أسألك يا جلالة الملك أن تمنحني حرية أكبر في تنظيم جدول نشاطاتي».

- لكن، ماذا يمكنك أن تفعلي خلاف ذلك؟ كل ما اخترته لأجلك هو جيد ومفيد لك.

- هذا بالضبط ما أقصده يا جلالة الملك. ترغب النساء باتخاذ خياراتهن بأنفسهنّ.

تنهّد مالك وألقى نظرة سريعة على ساعته، ثم هزّ رأسه قائلاً: «مهما يكن هذا الأمر مثيراً للاهتمام، إلاّ أنّ لديّ زواراً ينتظرون في مكتبي. وأخشى أنني أمضيت في هذا النقاش وقتاً أكثر من اللازم. يؤسفني أن خياراتي لا تجعلك تشعرين بالسعادة، لكنني أتوقع أن تتمتعي بالدروس ما إن تبدأي بها».

استدار الملك مبتعداً، وسار باتجاه الباب. فيما وقفت نيكول تراقب خروجه وهي تشعر بالذهول. إنه جاد في ما يقول، لقد انتهى الأمر. طار صواب نيكول لفكرة أنه ضرب بكلامها عرض الحائط، فعاودتها حدّة طباعها ثانية، فنادته قائلة: «لن أذهب لتلقّي الدروس. سوف أعيد النظر في ذلك البرنامج وأرى إن كنت أستطيع القيام بنشاطات تناسب احتياجاتي أكثر».

آه، لقد أثار ذلك انتباهه. كبحت نيكول ابتسامة الرضى التي كادت تغطّي وجهها وهي تراه يقف عند الباب، ثم يستدير ببطء إلى الوراء. غدت نظرات عينيه الرماديتين قاسيتين كما غدت تعابير وجهه عنيدة. ثم قال: «برنامج الدروس نهائي».

- لا شيء في الحياة نهائي.

ورفعت ذقنها بعد أن غدا طبعها ملتهباً وثارت انفعالاتها. وتابعت تقول: «لا أريد أن يملي عليّ أحد ما أفعله. أنا لم أقطع هذه المسافة الطويلة كي أصبح ممسحة للأرجل هنا».

انتصب رأس الملك ذو الشعر الداكن وتصلّب فكّه ثم ردّد ببطء: «ممسحة

للأرجل؟ أجد هذا الوصف مهيناً جداً. أنا أكُنُّ الكثير من الاحترام للنساء. والنساء في حياتي مدلّلات ومصانات، وإذا كان لديك اعتراض على تعلُّم لغتنا...».

- المسألة ليست مسألة تعلم اللغة، يا جلالة الملك.

قالت ذلك وهي تسير باتجاهه، فيما تجمّع السخط والإحباط في داخلها فلم تعد تستطيع السكوت، وتابعت: «أنا لا أمانع في تعلُّم لغتكم، لكنني لا أستطيع الانغماس في دروس اللغة مباشرة بعد وصولي إلى هنا. الناس في بلادك يتكلّمون لغتين، فالجميع في بَرَكة يتكلّمون اللغة الفرنسية، وكذلك الأمر في بلادي. فنحن نتكلّم الإسبانية والفرنسية».

شبك مالك ذراعيه فوق صدره قائلاً: «لكن اللغة الفرنسية هي جزء من ماضينا الاستعماري فيما اللغة العربية هي لغة المستقبل».

وقفت نيكول في مواجهة السلطان، وشبكت ذراعيها كما يفعل هو تماماً، مقلّدة وضعيته بهُزء وقالت: «لِمَ ترغب إذن بالزواج من امرأة أوروبية يا جلالة الملك؟ لا بد أن هناك العديد من الأميرات العربيات، طالما هذا هو مستقبلك».

لم يُجِبْ عن سؤالها، إلاّ أنه انحنى باتجاهها وقد عقد حاجبيه معاً، أما نيكول فحبست أنفاسها بصورة غريزية ما إن اقتربت شفتاه من أذنها وهو يقول: «لم يفت الأوان بعد على وضعك على متن أول طائرة وإعادتك إلى بلادك».

صرّت نيكول أسنانها وضاقت عيناها.

- ربما يجدر بك أن تفعل ذلك. إذ يبدو أنك لست مستعداً لمواجهة المعنى الحقيقي للزواج يا جلالة الملك.

فجأة، شعرت نيكول بيده تُمسك بمؤخرة عنقها، وبأصابعه تلتف حول بشرتها الدافئة الحسّاسة، فسرت في جسمها ارتجافة. وقال: «لا يمكنك إلقاء اللوم كلّه عليّ أيتها الأميرة، فأنت تغيّرت كثيراً. منذ شهر كنت أكثر حماساً لهذا الارتباط. ومنذ أسبوعين أبديت توقاً ورغبة كبيرين للزواج».

قرّبها منه، إلى أن شعرت نيكول بدفء جسده، بطاقته المكبوتة، بقوته

الداخلية. هذه المرة لا يمكنها الهرب منه، إلى أن يقرر بنفسه متى سيتركها. وسألها: «ما الذي غيّرك بهذا الشكل شانتال؟ تبدين سيئة الطِباع اليوم».

- أنا لست سيئة الطباع، بل أنا صريحة فقط.

إنه يسيطر عليها برجولته محاولاً التحكُّم بحياتها، كما أن غطرسته تُثير سخطها. فلا داعي لتقييدها وحشرها بالقرب من جسمه كما يفعل الآن، جاعلاً إيّاها ضعيفة، وتابعت تقول: «يبدو أنه من غير المسموح لي أن أبدي رأياً».

راحت أصابعه تُمسِّد عُنقها. أحبّت نيكول لمسته، لكنها كرِهتْ قوة سيطرته عليها.

أجابها بهدوء: «بل من المؤكد أنه يسمح لك بإبداء الرأي، لكن حتى الآن لم تظهر آراؤك سوى التأفف والانزعاج...».

- وهل أنت معتاد على إجبار الآخرين على إطاعتك بالقوة، يا جلالة الملك؟ أفهم جيداً أنك السلطان هنا، لكن من المؤكد أن الآخرين.. أفراد أسرتك ومن هم حولك، يسمح لهم بالحد الأدنى من حرية الكلام، أليس كذلك؟

ردّ مالك وهو يضغط بإصبعه على شفتيها: «ما ترمين إليه يفوق مسألة حرية الكلام، وفي الواقع، سمعت كل ما أرغب بسماعه منك».

- حسناً، أنا لن أهدأ!

قالت ذلك على الرغم من إصبعه الذي يسكتها. تكلّمت كي تدفعه إلى قول المزيد، ولكي تحمي نفسها من الضياع. التوتر الذي ساد بينهما بدا كاسحاً، ولم تشعر نيكوليت في حياتها بمثل ذلك الخوف.

- ألن تفعلي؟

أخذت نفساً سريعاً ضحلاً في محاولة لاستعادة السيطرة على نفسها و قالت: «كلا».

وكأنها سمعت صوت شانتال يرن في رأسها، سمعت عدم موافقتها على موقفها هذا. فشانتال لم تقم ولا يمكن أن تقوم بتحدّي رجل على هذا النحو، إنها تؤمن باللباقة، الدبلوماسية، والهدوء. لكن نيكول الآن أبعد ما تكون عن الهدوء.

انخفض رأس مالك فلفحت أنفاسه خدّها وهو يقول: «لا يمكنني القبول بزوجة غير مطيعة».

اخترق صوته العميق كيانها مرسلاً شحنات كهربائية في داخلها. وشعرت بتوق شديد إليه، إلى صوته، إلى قوته وإلى سطوته. أحسّت بالاختناق وهي تقول لنفسها: أنت خرقاء، لا بد أنك فقدت صوابك إذا كنت تفكرين بالملك نور على هذا النحو.

رفع مالك ذقنها وحدّقت عيناه الرماديتان بقوة في عينيها، فرأى النار والتمرُّد اللذين لم تستطع إخفاءهما: «أنت ترفضين الاستسلام».

كاد رأسها ينفجر إثر لمسته، فقالت: «ولِمَ عليّ أن أستسلم؟ إذا كنت جاداً في رغبتك في الحصول على زوجة مثقفة ولديها تقدير لذاتها، يجدر بك أن ترحّب بأفكاري هذه».

- أنا أرحّب بها، لكنني لا أتوقع عروساً تتحدى رغباتي كلها.

- لم أصبح عروسك بعد، كما أنك لا تبدي رغبات بل تعطي أوامر فقط. هناك فرق كبير بين الأمرين، وكلانا يعرف ذلك.

وأرجعت رأسها إلى الخلف، ثم وضعت يديها على صدره ودفعته عنها. لا سبيل لأن تدعه يخضعها لسيطرته.

- وإذا كانت رغبتي هي أن تتابعي دروساً في اللغة؟

شعرت بنظراته على جسمها كأنها لمسات فقالت بصوت أجش: «سآخذ رغبتك بعين الاعتبار».

لا بد أنه أدرك تأثيره عليها وأدرك قوة الأحاسيس التي أثارها في داخلها. «لا ضرورة لأن نتشاجر على كل الأمور بيننا».

جاء صوته أجش كصوتها تقريباً، فشعرت بخدر دافىء يجتاح كيانها.

- أنت لا تحب أن يناقشك أحد، أليس كذلك؟

سعل مالك وكأنه ينظف حنجرته وقال: «كلا».

وغدت عيناه الرماديتان أكثر دفئاً وازداد عمق اللون الأخضر فيهما: «هناك

أشياء أفضل من الشجار لأقوم بها عندما أكون برفقة امرأة، لا سيّما إذا كانت هذه المرأة «امرأتي».

ها هو يقولها مرة أخرى «امرأته». المزيد من التملّك.. وهي لا ترغب بأن تكون إحدى ممتلكاته. ثم تابع بنعومة وفي صوته نبرة من الإكراه: «والآن، لنرى إن كان الأمر سينجح؛ أيتها الأميرة شانتال. آمل منك أن تتكرّمي وتتابعي صفوف اللغة والثقافة التي ستبدأ بعد...».

وألقى نظرة سريعة على ساعته ليتابع: «.. ربع ساعة من الآن. إن اعتيادك على ثقافتنا أمر ذو أهمية بالنسبة إليّ. فهل يمكنك أن تتدّبري أمر إدخال هذه الدروس ضمن جدول نشاطاتك المكتظ؟».

إنه حقاً لم يترك لها خياراً آخر. اللعنة عليه! مالك نور هو شخص يصعب التعامل معه حقاً.

أجابت باقتضاب: «سوف أراجع مفكرتي، وإذا وجدت أن لديّ فراغاً هذا الصباح، سأبذل جهدي لأبدأ الدرس الأول».

كلماته، لمسة يديه، ابتسامته الواثقة تجعلها ترتعش بصورة خرقاء. وكأنما تلاشت الحدود بينهما. وقال: «سوف تفعلين. كلانا نعلم أنك سوف تفعلين. أنت الآن في بَرَكة، وقريباً ستغدو رغباتي أوامر بالنسبة إليك».

ثم أخذ يدها في يده وقبّلها: «تمتعي بوقتك برفقة فاطمة. أتطلع شوقاً لسماع تقرير مفصّل عن سير دروسك هذا المساء».

راقبته نيكول هو يغادر الغرفة، شاعرة بكتلة من الهستيريا تتجمع في صدرها. كيف ستتمكن من إقناعه بالذهاب إلى أميركا؟ كيف ستتمكن من إقناعه بأي شيء على الإطلاق؟ إنه يطلب خضوعاً.. ولا شيء سوى ذلك. وراحت تقول لنفسها: إنك في ورطة كبيرة وسوف تغرقين. والسؤال الوحيد هو كم تبقى لها من الوقت قبل أن تغوص إلى القاع!

التقت نيكوليت بفاطمة في غرفة استقبال واسعة جيدة التهوئة. في تلك الغرفة فتحت المصاريع الخشبية التي تغطي النوافذ المقوسة الشكل على إتساعها، ما سمح

www.elromancia.com

لأشعة الشمس الساطعة بالدخول، فانعكست أنوارها على الجدران ذات اللون البرتقالي وعلى الأرض الرخامية التي يمتزج فيها اللونان الأسود والتبني في تآلف رائع.

بدا لنيكول أن درس اللغة هذا قد امتد إلى ما لا نهاية. ثم حملت إليهما إحدى الخادمات صينية من الحلوى باللوز والشاي المعطّر بنكهة النعناع. راحت فاطمة تحرك السكر في الشاي وهي تسترق النظر إلى نيكوليت: «أتعلمين أيتها الأميرة أنه يقال عندنا إن المرء لا يستطيع الهرب من أمرين: الموت والزواج؟».

وابتسمت فاطمة ثم ناولت نيكول كوباً من الشاي قائلة: «وهذا صحيح كما تعلمين. فمكان المرأة هو في المنزل ودورها هو الاهتمام بالأسرة».

هزّت نيكول كتفيها وقد شعرت بالنبرة العدائية في صوت تلك المرأة. وقالت: «ذلك لا يشكل مشكلة بالنسبة لي، أيتها اللايدي فاطمة. فلديّ ابنة، وأنا أشعر بالارتياح للبقاء في المنزل. لقد فعلت ذلك طيلة سنوات».

راحت فاطمة تنفخ بلباقة فنجان الشاي الساخن: «إذن، سوف تتزوج ابنتك في ما بعد رجلاً يتم اختياره لها».

أجفلت نيكول، وهي تتصور ابنة أختها وقد أجبرت على الزواج بأحدهم على الرغم من إرادتها. ذلك لن يحصل مطلقاً.

- لا سبب يدعو ليلي كي تفعل ذلك.

- ليس بعد.. لكن إذا ما تزوجت من السلطان..

وابتسمت فاطمة ابتسامة متصلبة جعلت عينيها الداكنتين اللون تلتمعان كالعقيق المصقول قبل أن تتابع قائلة: «... على أولادك الآخرين أن يتبعوا تقاليدنا، وسيكون من الأفضل لليلي أن تفعل ذلك أيضاً».

لم تتمكن نيكوليت من الإجابة، وشعرت بتيار بارد يجتاحها من الداخل، زارعاً الخوف في قلبها. وقالت معلّقة: «لم يتحدث إليّ قريبك بهذا الشأن مطلقاً».

رشفت فاطمة رشفة من فنجانها وقالت: «ربما لم يفعل بعد، لكنه سوف يفعل لاحقاً، بعد أن أعرفك جيداً على ثقافتنا. تعلمين أن هذه هي وظيفتي.. تعريفك

على أسلوب الحياة عندنا».

حدّقت نيكول داخل فنجانها الصغير، وغدت الانفعالات حارّة في صدرها لتحل محل البرودة التي غلفت قلبها من قبل. هل أخذت شانتال هذه الأمور بعين الاعتبار؟ الحمد لله إن شانتال ليست هنا.. الحمد لله إنها لا تستطيع سماع هذا الحديث.

أحنت فاطمة رأسها: «بالعودة إلى حديثنا عن ابنتك، هل ترين أن من العدل معاملتها كأنها منبوذة؟ أمن العدل التعامل معها بطريقة مختلفة عن تلك التي سوف يتم التعامل بها مع أبناء السلطان؟ أرجو أن تكوني قد فكرت جيداً بها، بما هو خير لها. برأيك، ما سيكون شعورها حين تدرك أنها مختلفة؟ وكيف ستؤثر خياراتك على مستقبلها».

ضغطت نيكول لسانها إلى سقف حلقها، وشعرت بأنها تكاد تختنق، ثم قالت: «لايدي فاطمة، ابنتي ما تزال في الرابعة من عمرها.. في الرابعة من عمرها فقط، أي إنها ما زالت طفلة صغيرة. وأظن أن من السابق لأوانه التفكير بهذا النوع من الخيارات بالنسبة إليها».

- لكن الوقت يمر بسرعة.

كلا، إنه لا يمر بسرعة كافية! هكذا فكرت نيكول وهي تشعر بالسخط. إنه بالكاد يتحرك.. لقد أصبحت رفقة فاطمة لا تُحتمل.

بعد أن عادت إلى غرفتها، ألقت نيكول نظرة سريعة على مفكرتها، وهي لا تصدّق أن بإمكانها أن تقضي كل صباح مع فاطمة كل ذلك الوقت الذي يشبه الجحيم. شعرت بالإهانة لأن القرارات قد اتُخِذَتْ عنها في ما يتعلّق بأتفه التفاصيل، بما في ذلك تناول القهوة والطعام.

سواء شعرت بالإهانة أم لا، ليس لديها سوى وقت قليل يكفي لتُنعش نفسها وتبدل ثيابها قبل أن يحين موعد العشاء. وتبعاً للمفكرة نفسها، سوف تتناول العشاء الليلة برفقة الملك نور، وسيكونان وحدهما. وها هي علياء تنتظرها وقد أحضرت لها ثياباً هي عبارة عن بنطلون ذي لون زهري باهت مع رداء طويل وضيّق

من الحرير. وقالت لنفسها وهي في طريقها إلى جناح الملك، إن عليها النظر إلى لقائهما معاً هذه الليلة كفرصة مناسبة للحديث، إنها فرصة للنجاح ولا مجال فيها للفشل.

تناولا الطعام على الطريقة الغربية، حيث قُدِم لهما الطعام على طاولة صغيرة في إحدى زوايا فناء أنيق. كانت المشاعل والشموع حولهما مضاءة تعكس أنوارها على الجدران المبلّطة، فتظهر جوانب قطع الموزاييك بوضوح كبير. أثناء العشاء، حاولت جاهدة إيجاد طريقة تبدأ بها الحديث عن مخاوفها في ما يتعلّق بالزفاف و... باللايدي فاطمة، مع أن الزفاف له الأولوية بين الأمرين، لكن الفرصة لم تسنح لها لذلك. فقالت: «تلقيت الدروس المخصصة لهذا اليوم».

وانكمشت لأنها لم تجد بداية ملائمة للحديث غير هذه، ومع ذلك..

- يبدو أن اللايدي فاطمة... واسعة الاطلاع.

- إنها كذلك فعلاً.

وأجبرت نيكول نفسها على القول: «قالت لي أموراً جعلتني أشعر بالقلق».

- حقاً؟

لم يكن ردّه مشجعاً، لكنها عادت تقول: «على الرغم من ثقافتها الواسعة، بدت متحفّظة، على الأقل في ما يتعلّق بالأدوار التي تلعبها المرأة في مجتمعكم».

حرّك كتفيه قليلاً فبدا النور متراقصاً فوق تقاسيم وجهه، وبدا متحكماً في نفسه إلى أبعد الحدود: «لطالما كانت فاطمة مرتاحة لوضعها كامرأة. وهي تتقبل وجود فوارق بين الرجال والنساء».

أتراه يحاول أن يثير حفيظتها؟

- إنها تبدو مناسبة تماماً لك. يفاجئني أنك لم تفكر بالزواج منها.

تصادمت نظراته مع نظراتها وقال: «وهل قلت أنا ذلك؟».

- هل اقترحت عليها الأمر إذن؟

- كلا، أنا أكُنُّ لها احتراماً كبيراً، إلا أنها بمثابة أخت لي.

- هل سبق أن طلبت يد إحداهن للزواج؟

لم تكشف لها تعابير وجهه عن أي شيء. أما نبرة صوته فبدت فاترة وهو يجيبها: «لقد انتظرت وقتاً طويلاً قبل أن أفكر بالزواج، انتظرتك طويلاً».

- لست أنا...

- بلى، أنت أيتها الأميرة.

لم تعرف نيكول ما عليها أن تقول بعد ذلك. ربما يجدر بها أن تشعر بالسرور لأنه يفسح لها المجال للتحدّث عمّا يساورها من قلق في ما يتعلّق بالزواج.

- هل تسنى لك الوقت لتفكر بما اقترحته عليك؟ الأمر يعني لي الكثير حقاً.. الزواج في الأبرشية التي تنتمي إليها أمي.

حاولت إبقاء نبرة صوتها عادية، على الرغم أن أصابعها راحت تعقد فوطة الكتّان خاصتها تحت الطاولة.

- أمك كانت أميركية الجنسية، أليس كذلك؟

- أعلم أنك تود أن نتزوج هنا في أتيك، لكن ربما يمكننا أن نقوم بتسوية. فبدلاً من الاحتفال مرة واحدة بالزفاف يمكننا أن نحتفل مرتين. بحيث نذهب إلى باتون روج لنقيم احتفالاً في الكنيسة هناك، ثم نعود إلى هنا ونقيم احتفالاً رسمياً وُفق تقاليد بَرَكة.

- أحتفل مرتين؟

- هذا ليس أمراً غريباً، يا جلالة الملك...

- مالك، من فضلك. إننا نناقش موضوع زفافنا.

الطريقة التي لفظ بها كلمة «زفافنا» جعلت الدم يندفع إلى خدّيها، فأومأت بارتباك، وقالت بصوت متقطّع: «الاحتفال مرتين بالزفاف أصبح شائعاً هذه الأيام، إنها طريقة جيدة للتقريب بين الثقافات».

زمّ مالك شفتيه وقال بعد تردّد: «ربما. أنا لم أفكر بذلك من قبل، لكن لا يمكن القول إنه أمر غير وارد على الإطلاق».

هذا رائع! تنفست نيكول بارتياح، إلاّ أن ارتياحها هذا بدا مشوباً بالتوتر.. شعرت بعاطفة شخصية تجاهه... أمر لا علاقة له بشانتال وليلي، إنما يتعلّق

بانجذابها إليه.

وأضاف مالك كأنه يفكر بصوت مرتفع: «إذن، سوف نتم مراسم الزفاف هنا أولاً، طالما أنك هنا الآن. وهكذا تبقى خطة الزواج على ما هي عليه. وبعد إتمام المراسم في القصر، يمكننا السفر إلى لويزيانا، ودعوة أصدقائك وأفراد أسرتك للإنضمام إلينا هناك».

كلماته هذه نسفت أحلامها كلها. يا لسخافتها! يا لسخافة ذلك الحلم النهاري الذي راودها وهي مستلقية في السرير بعد ظهر ذلك اليوم! إنه سلطان وهي أميرة.. حتى إنها ليست الأميرة التي يريدها حقاً.

- جلالة الملك..

وما إن لاحظت عبوسه حتى تداركت الأمر وتلفظت باسمه: «مالك، أقدّر لك أخذ اقتراحي بالاعتبار. وأنا شاكرة لك لموافقتك على السفر إلى أميركا. لكن إذا كنّا سنقوم بذلك، فأنا أفضل، في الواقع، أن نجري المراسم في الكنيسة أولاً.. أود أولاً أن أكون عروساً بالفستان الأبيض».

ردّد كلماتها مفكّراً: «بالفستان الأبيض!».

وعندها تذكّرت نيكول أن من المفترض أنها شانتال، فدفعت إلى وجهها بابتسامة مشدودة وقالت: «أعلم أنني فعلت ذلك من قبل، لكن ذلك أمر... تقليدي».

- وأنت الشقيقة المتمسكة بالتقاليد، أليس كذلك؟

ثم اتكأ إلى الخلف مبتعداً عن الطاولة، فيما راحت أنوار الشموع تتراقص مضفية على الطاولة أمامهما لوناً ذهبياً ممتزجاً بالزهري.

- أشرتِ هذا الصباح إلى أن الدوكاسيين هم أنصاف فرنسيين، أليس كذلك؟

وفكّرت نيكول؛ يا لها من ضربة سريعة! لا شك أنه رجل ذكي... إنه يسيطر على أحاسيسها ويتحكم بها، وعليها أن تأخذ ذلك الأمر بالاعتبار جيداً. وأجابت: «أنصاف فرنسيين وأنصاف إسبان».

وبعد لحظة من التوقّف استجمعت حواسها، مدركة أنها تحتاج إليها أكثر من

أي لحظة في حياتها. هذا الرجل لا يفوته أي شيء، وهو يتذكّر كل كلمة تتفوه بها. وتابعت تقول: «مع أن العديد من الملوك الدوكاسيين اتخذوا زوجات إنكليزيات عبر التاريخ».

- إذن، فأنت تتقنين تكلّم..

- الفرنسية وهي لغة أبي، الإنكليزية وهي لغة أمي. أما مُربيتنا فكانت من سيفيل، فكنا نتكلم معها باللغة الإسبانية.

- وهل تتقنين لغات أخرى؟

هدأت ضربات قلبها، وتمكنت من استعادة هدوئها، فقالت: «أتقن اللغة اللاتينية بالتأكيد كما أعرف القليل من اللغة اليونانية والقليل من الإيطالية، ويمكنني تدبّر أمري في اللغة الألمانية».

- أنت متعددة اللغات إذن!

هزّت نيكول كتفيها: «أنا متخصصة في الرياضيات. لكن يقولون إن القدرات اللغوية والقدرات الرياضية تقع في الجهة نفسها من الدماغ».

- هذا مثير للاهتمام.

وراحت أصابعه تنقر بهدوء على الطاولة فيما ظهر التفكير العميق على تعابير وجهه وقال: «لم أكن أعلم أنكما، أنت ونيكوليت، قد درستما الرياضيات معاً في الجامعة..

جاءت كلماته بمثابة صدمة لعقلها، فذكرتها أنها تقوم بدور شانتال... تصرفي كما تتصرف شانتال! لكن ذلك كان أصعب مما توقعت نيكول. فهي لم ترغب يوماً بأن تكون شخصاً آخر إلاّ نفسها. وقالت باستخفاف: «نحمل كلتانا الجينات نفسها».

- لمناسبة الحديث عن الجينات، لقد التقيت والدك في إحدى المرات.

قال مالك ذلك مغيّراً مجرى الحديث مرة أخرى، ما جعلها تفقد تركيزها للحظة.

- كان ذلك منذ سنوات طويلة، وأنا في سن المراهقة. سمعته يلقي خطبة في أحد

اجتماعات القمة الأوروبية، كان شخصاً لامعاً.

- لقد أحب ميليو من كل قلبه..

وتراءت لها صورة المرفأ القديم في بلادها، الشوارع الضيّقة المحاطة بالأشجار، المزارع الجميلة المنتشرة فوق التلال الصخرية. وأكملت: «.. لطالما أراد لها الأفضل. وكان مستعداً لأقصى التضحيات من أجلها...».

قاطعها السلطان قائلاً: «باستثناء التخلّي عن والدتك. فوالدتك لم تكن موضوع نقاش أبداً، أليس كذلك؟».

والدتها... نجمة البوب الأميركية اللامعة... المتحدرة من أصل فقير.

أجابت نيكول بسطحية: «كان ليتخلى عن العرش لو أنه أجبر على التخلّي عنها».

استقرت نظرات مالك على وجه نيكول المتوهج: «هل كنتما متفاهمتين معاً».

- نعم، كثيراً.

لقد أحبت نيكول والدتها إلى حد كبير، إنهما متشابهتان في نواح كثيرة. فهما الاثنتان لا تخشيان أي شيء. وتابعت تقول: «أنا سعيدة لأنها لم تكن أميرة نموذجية، ولأنها ذات أصول فقيرة... أميركية من الطبقة الكادحة. لم تكن تأخذ بأي شيء على أنه مسلم به».

ظهرت إحدى الخادمات تحمل صينية عليها إبريق من القهوة مع فنجانين صغيرين. وفيما كانت الخادمة تسكب القهوة، راحت نيكول تتساءل كيف وصل بهما الحديث إلى هذه النقطة. انتظر مالك رحيل الخادمة وقال: «وهل تقومين أنت بالدور نفسه مع ليلي؟ كيف هي علاقتك بابنتك؟».

مرة أخرى شعرت نيكول بالضياع والتشتت، وتذكرت أن كل ما يقومان به وكل ما يقولانه ليس سوى كذبة كبيرة. من المفترض أنها تقوم بدور شانتال، لكن عوضاً عن ذلك ها قد استمرت تتحدث باندفاع وتجيب على أسئلته بصراحة وانفتاح.

فكّري كما تفكر شانتال.. فكّري كما تفكر شانتال.. وكأن نيكول ترى عيني

شانتال في مخيلتها، مدركة أنها أمّ رائعة، بل هي ذروة الأمومة. فقالت بعد برهة: «أعتقد أنني أكثر اهتماماً بحماية ابنتي مما كانت عليه أمي. كما أظن أن ليلي تشعر بالطمأنينة أكثر من معظم الأولاد الآخرين، وهي حسّاسة وشديدة التأثر».

أخذ مالك رشفة من فنجانه الصغير: «ربما لأنها فقدت والدها في مرحلة مبكرة من عمرها».

لم تستطع نيكول منع فكّيها من التوتر. أرماند.. أرماند.. كم تكره الأمير أرماند ثيبوديت. وافقته بهدوء إلاّ أن صوتها بدا بارداً: «ربما، وربما لأنها أكثر وعياً ممن هم في مثل سنها، وكأن حدسها ينبؤها بأن الأمور ليست على ما يرام.. ليس كما يجب».

حدّق مالك بها متفحصاً وبدا الفضول والتأمل على قسماته. وبعد حوالي دقيقة تحرك في مقعده ليغدو أكثر ارتياحاً فاتكأ إلى الخلف، أما هي فقد جعلتها حدّة نظراته تحترق من الداخل إلى الخارج. وقال: «مما فهمته، زواجك الأول لم يكن مبنياً على الحب؟».

شعرت نيكول بانقباض في معدتها، وصعب عليها أن تركّز أفكارها، فقالت: «إنه أبعد ما يكون عن ذلك».

- ومع ذلك، ها قد أتيت إلى بَرَكة...

لأنني لا أملك خياراً آخر، هذا ما أردت أن تقوله له. أنت ضغطت على شانتال، وشانتال لديها ما يكفي من الضغوطات. وأخيراً قالت: «أريد أن أرى ليلي سعيدة».

وبطريقة ما، شعرت بثقل العالم يرزح فوق كتفيها. ففي أقل من ثمان وأربعين ساعة، التفت الشبكة حولها، وهي لم تعد نيكول ولا أصبحت شانتال. لم تعد تعرف من تكون. الشيء الوحيد الذي تعرفه هو أن التفاعل الكيميائي بينها وبين الملك نور ذو قوة بدائية.. إنه مذهل.. وهي لم تتجاوب مع أي شخص من قبل على هذا النحو، كما تعرف أن لا مجال... لا مجال على الإطلاق لأن تدع هذه الجاذبية بينهما تؤثر على حواسها وحياتها.

٤ ـ نمرة في المقاهة

بعد عودتها إلى غرفتها في وقت متأخر من ذلك المساء، استلقت نيكول على سريرها، وراحت تحدّق بالمصاريع الخشبية، التي لا تسمح إلاّ لكمية قليلة من النور بالتسرّب من خلالها. ولم تستطع النوم، لم تستطع أن تجعل دماغها يهدأ.

موعد الزفاف بعد أقل من أسبوعين، وهي لا تعلم بعد كيف ستتخلص من هذه الورطة. ماذا لو لم تتمكن من مغادرة بَرَكة؟ ماذا لو لم تستطع فسخ الخطوبة في الوقت المناسب؟ لا مجال على الإطلاق لأن تمضي قدماً في هذا الزواج.. حتى لو كان ذلك من أجل إنقاذ ليلي. لكن صوتاً صغيراً في رأسها أيقظها فتنهدت، وأغمضت عينيها. إنها تدرك أنها سوف تتزوج بطائر اللقلق إذا كان ذلك سينقذ ليلي. لكن.. آه، ليتها تجد سبيلاً آخر.. لا بد أن هناك سبيلاً آخر..

مرة أخرى استيقظت نيكول وهي في مزاج سيء. إنها تكره الكذب، وتمقت النفاق. وها هي ستمضي يوماً آخر مدّعية أنها شخص آخر. كانت علياء قد حضرت لها الفطور في الفناء الخاص بغرفتها. وبعد أن ارتدت أحد الأثواب الحريرية الطويلة من خزانتها، خرجت نيكول لموافاتها، وقد ربطت شعرها على شكل ذيل حصان في أعلى رأسها.

جلست علياء معها وهي تتناول فطورها، ثم قالت لها وهي تتأمل مفكرتها: «سيكون هذا اليوم مليئاً بالمشاغل؛ درس في اللغة، درس في الثقافة، ثم الذهاب من أجل قياس ثوب الزفاف...».

- كلا.

رفعت علياء بصرها عن المفكرة في يدها قائلة: «هل تودين تناول الغداء قبل

الذهاب لقياس الثوب؟».

- كلا، كلا. لا أريد الذهاب من أجل القياس...

- لن يستغرق الأمر سوى ساعة واحدة.

غطّت نيكول وجهها بيديها، ثم فركت جبينها. كم تكره ذلك الصداع الذي يبدو أنه لن يفارقها، هزّت رأسها قائلة: «أنا فقط أتمنى... أعني.. لِمَ لا نؤجل ذلك القياس؟».

لا فائدة من التذمّر، فعلياء ليست هي من وضعت جدول مواعيدها ولا يمكنها أن تغيّره.

تمكنت نيكول من تحمُّل الدروس الصعبة، وشعرت بالسرور عندما تحول موضوع الدرس إلى الجغرافيا. وضعت فاطمة أمامها خريطة بَرَكة والمناطق المجاورة لها، واهتمت نيكوليت بالتعرّف على مختلف المعالم الجغرافية الهامة، كسلاسل الجبال، الأنهار، والصحارى الكبرى. وما لبثت فاطمة أن طوت الخريطة فجأة وسألتها: «ما الذي تعرفينه عن حفلات الزفاف عندنا؟».

فأجابت نيكول: «لا أعرف سوى القليل».

تابعت فاطمة تقول باقتضاب: «يجدر بك أن تعرفي عنها. فهي ذات أهمية كبرى كما أنها باهظة التكاليف».

ثم التوت شفتا فاطمة إلا أنها لم تكن تبتسم. وعادت تقول: «يستمر حفل الزفاف بصورة عامة لمدة أسبوع، بحيث تدوم الاحتفالات لأيام عدة. وحفل زفافك سيدوم على الأرجح لثلاثة أيام، وسوف تتلقين كل يوم المزيد من الهدايا المكوّنة من الذهب والمجوهرات من قبل مالك. وأخيراً، عندما يحين موعد الزفاف، سوف تحملين على هودج وضعت فيه المجوهرات التي أهداك إياها».

شعرت نيكوليت بالذعر، وما لبثت فاطمة أن قالت بنبرة قوية: «أنت محظوظة. لا بد أنك سعيدة بما ستحصلين عليه من ثروة. أليس كذلك؟».

سمعت دمدمة أصوات عند مدخل الغرفة. ونظرت نيكول من فوق كتفها لترى الخادمات ينحنين احتراماً للملك نور الذي دخل الغرفة لتوه، فلم تعد تشعر

بالارتياح. وسرعان ما وقفت فاطمة وقالت مرحبة: «صباح الخير».

اقترب الملك منهما وسألهما: «كيف تسير الدروس؟».

كان يرتدي عباءة فضفاضة داكنة اللون مع قميص ذات كمّين طويلين بلون نحاسي متألق تناسب بشرته تماماً، وتبرز قسمات وجهه والتماع شعره الأسود.

قالت فاطمة بنبرة رسمية: «بصورة جيدة. نحن نبلي حسناً».

أحنى مالك رأسه ثم أومأ لفاطمة بالانصراف قائلاً: «حسناً، اسمحي لي إذن بأن أسرق منك أميرتي».

قوله هذا أنبأ فاطمة بأنها أصبحت حرة في الذهاب، أما هو فاستدار نحو نيكوليت قائلاً: «هل أنت واثقة بأن الدروس تسير بشكل جيد؟».

نظرت نيكول إلى وجهه، ولاحظت تعابيره المليئة بالحذر. فتساءلت إن كان قد سمع أطراف الحديث الذي كان يدور بينهما فور دخوله إلى الغرفة. ثم قالت: «نعم، إنها كذلك. فقريبتك واسعة المعرفة».

وافقها قائلاً: «إنها كذلك. لكنها تتمسك أحياناً بالشكليات».

ثم تردّد لحظة قبل أن يقول: «أظن أنني سمعتكما تتحدثان عن عادات الزواج لدينا. أليس كذلك؟».

إذن، فقد سمع شيئاً من الحديث!

- كانت تشرح لي طريقة الاحتفال بالزفاف. عليّ الاعتراف بأنها تبدو لي... قادمة من العالم الآخر.

- أي جزء منها؟

شعرت بالحرارة تندفع إلى خدّيها، وحاولت أن تهز كتفيها بلا مبالاة: «الجزء الذي تحمل فيه العروس محاطة بالمجوهرات والذهب».

راح مالك يضحك، وبدا صوته عميقاً، خشناً و.. مثيراً حين قال: «ذلك لا يشبه في شيء الوقوف أمام الهيكل بثوب الزفاف الأبيض، أليس كذلك؟».

هذه التمثيلية الصغيرة التي تقوم بها، تجعله يشعر بالتسلية. إن الأميرة مصمّمة على متابعة القيام بذلك الدور، مع أنه لا يناسبها على الإطلاق. لقد عرف أنها

نيكوليت منذ اللحظة الأولى التي وصلت فيها، ومع ذلك قرر أن يجاريها في تمثيليتها، متسائلاً إلى أي حد سوف تصل في ذلك. لطالما سمع أنها مثقفة، جريئة، ومستقلة. ولطالما أثار اندفاعها حيرته، وكان بمثابة تحدٍ له. قد تكون هي لاعبة ماهرة، لكنه هو أيضاً كذلك. سوف يجاريها في لعبتها، بل إنه سيهزمها أيضاً. راح يتأمل وجهها، آملاً في سره بأن تبادله الإعجاب. لطالما تهاوت النساء تحت قدميه مسحورات بقوة سلطته وشدة ثرائه. فالنساء كنّ دائماً سهلات المنال بالنسبة إليه، لكن نيكول ليست كذلك، وهذا ما أعجبه فيها. إن قدومها إلى بلاده ومحاولتها بأن تلعب عليه لعبتها هو... تحد بحد ذاته.

- ألا يجدر بنا الذهاب الآن لكي تقيسي ثوب الزفاف؟

سألها ذلك وهو يشعر ببعض الذنب لأنه يمنح نفسه الكثير من التسلية. لقد مضى وقت طويل لم يعد خلاله يشعر بأي نوع من الحماسة أو التفاؤل حول أي أمر من الأمور. لاحظ أن عبارة «ثوب الزفاف» جعلت فكّي نيكوليت يتصلبان، وبذل كل ما في وسعه كي لا يظهر أي تعبير أو انفعال على وجهه.

- هل سترافقني من أجل أخذ تلك المقاسات؟

هزّ كتفيه قائلاً: «ولمَ لا؟».

لامست نيكول أطراف أسنانها برأس لسانها الوردي اللون بسرعة وقالت: «أهكذا جرت العادة؟».

إلاّ أنها لم تترك له فرصة للإجابة على سؤالها، بل تابعت على الفور: «لأنني لا أتخيل أن ذلك مسموح به هنا. لقد أخبرتني قريبتك فاطمة أنه لا يسمح بالاختلاط بين الرجال والنساء هنا. فما إن تصل الفتيات إلى سن البلوغ حتى يتم الفصل بينهن وبين الفتيان..».

وتلاشى صوتها، فحاولت من جديد: «ربما أسأت فهمها، أو ربما أسأت فهمك أنت».

- كلا، أنت لم تسيئي الفهم.

انتظرت أن يشرح لها الأمر أكثر إلاّ أنه لم يفعل.

شعر مالك بالرضى لرؤية ارتباكها. لقد أتت إلى هنا وهي تظن نفسها المسيطرة على الوضع. ظنّت أنها ستفعل ما يحلو لها وأن كل شيء سيسير وفق ما خططت له. لكن لا شيء في الحياة يسير وفق خطة من جانب واحد، وها هي اللعبة مستمرة.

شعر بنظراتها ترمقه بين الحين والآخر، فيما هما يسيران داخل القصر من ممر إلى آخر. إنها تجهد تفكيرها كي تصل إلى استنتاج واضح ونهائي، لكنها لا تنجح في ذلك.. لا تستطيع ذلك. ابتسم مالك في سرّه، فهي تعجبه. لقد أعجبته حتى قبل أن يعرفها جيداً؛ قدّر تماماً ما رأته عيناه، كما قدّر موقفها الشجاع. أدرك منذ البداية بأنها الأميرة الدوكاسية التي ترفض الزواج، فلقد سمع الكثير عن هروبها المتكرر من القصر، والمشاكل التي يخلفها ذلك في ميليو. كما سمع بالمتاعب التي سببتها لجدّيها الحبيبين، وبأنها لا تكترث على الإطلاق بما يفكر به الآخرون. إنها تحب أسرتها، لكنها مع ذلك، لن تضحي بنفسها من أجل إرضائهما.

إنهما متشابهان، فقد أقام علاقات مع الكثير من النساء، ولم يشغل باله مطلقاً بمسألة الزواج، عالماً أنه سيتزوج في أحد الأيام. فهو الابن الأكبر لسلطان بَرَكة العظيم، ومن المفترض أن تكون عروسه محبوبة، وفية، وتتمتع بحسّ المسؤولية. لطالما اعتقد أنه سيجد هذه الصفات في امرأة من بلاده، لكن بعد ما مر به من تجارب في الحياة، تغير سلّم أولوياته. إنه يريد أكثر من امرأة هادئة، خاضعة، إنه يريد امرأة يمكنها أن تواجه التحديات في الحياة بشجاعة، وذكاء، ولباقة.

وصلا إلى آخر القاعة، ففتح مالك الباب ليدخلا إلى غرفة استقبال حديثة التصميم. أثاث الغرفة كان عبارة عن مقاعد منخفضة ذات قماش مخملي من اللونين البرتقالي والبنفسجي، أما الجدران التي طليت باللون الأصفر الباهت فقد غطيت معظمها بمرايا طويلة وقامت في وسط الغرفة منصة محاطة بالستائر مخصصة لأخذ المقاسات.

دخلت امرأة أنيقة إلى الغرفة، وبعد أن انحنت أمام الملك نور استدارت نحو نيكوليت ثم قالت وهي تبتسم: «سمّو الأميرة، إنه شرف لي أن ألتقي بك، وشرف أكبر أن أقوم بتصميم ثوب زفافك».

استدعت المصمّمة مساعدتيها لتبدا بأخذ القياسات وقالت: «ألديك فكرة عن طراز العباءة التي تودين ارتداءها يوم الزفاف؟».

هزّت نيكول رأسها نفياً. ذات مرة، منذ أربع أو خمس سنوات، وفي الليلة التي سبقت زفاف شانتال إلى الأمير أرماند، راحت هي وشقيقاتها يخططنَ لمستقبلهنّ. وقامت هي وجويل بوضع تصاميم لثوبي زفافهما، وكل منهما وضعت مخططاً لزفافها. يومها قالت نيكول إنها ترغب بزفاف يشبه زفاف الأميرة النائمة، حيث كل شيء ملوّن بالوردي والمرجاني والأخضر. إذ إنها لن تتزوج مطلقاً إن لم يكن ذلك على طريقة الأميرة النائمة؛ لا بد أن تكون مستغرقة في النوم، ثم يأتي الأمير الذي سيوقظها بقبلة ثم يحملها إلى المذبح بسرعة قبل أن تُدرك ما الذي يحصل معها.

يومها ضحكت منها جويل وشانتال، بالتأكيد. لكن فكرة اصطحابها بسرعة قصوى إلى المذبح تبدو اليوم قريبة بشكل لا يصدق.

ما إن أنهت المرأتان أخذ القياسات حتى طلبت المصمّمة نماذج من القماش، وقامت المساعدتان بإحضار الثوب تلو الآخر. راحت تعرضها أمام السلطان أولاً، ثم تقوم بنشرها على كتفي نيكوليت. بدت الأثواب كلها من الحرير الباهظ الثمن يتخللها الكثير من خيوط الذهب الدقيقة.

كان مالك يراقب كل ما يجري عن كثب، من مكانه على أريكة تُشبه اليقطينة. وإذا به يتحدث فجأة إلى المصمّمة باللغة العربية. راحت المرأة تصغي إليه بانتباه، ثم انحنت واستدارت نحو نيكول مبتسمة وهي تقول: «إنك محظوظة جداً يا سمّو الأميرة. فالسلطان يرغب بأن أصمّم لك عباءة من كل ثوب من هذه الأثواب».

تمنّت نيكول لو يكف الآخرون عن القول بأنها محظوظة، فهي لا تشعر بأنها كذلك، بل تشعر بأنها واقعة في الفخ. استدارت لتلقي نظرة على الملك نور الذي يضطجع بارتياح على الأريكة. كانت قميصه النحاسية اللون مفتوحة عند رقبته، ما أظهر بوضوح الجزء الأعلى من صدره الذي بدا صلباً مليئاً بالعضلات. وقالت: «أنا أقدّر كرمك يا جلالة الملك، لكنني لا أحتاج إلى العديد من العباءات

الباهظة الثمن».

ظهرت في عينيه ومضه تنم عن التملك، وأجابها بنبرة متكاسلة: «إنه لمن دواعي سروري أن أقدم لك هذه العباءات».

ابتلعت نيكول ريقها وهي تفكر أن تلك الومضة المتملكة لا تعجبها على الإطلاق.

ما لبثت المصممة أن انتهت من أخذ القياسات، هذا ما استنتجته نيكول وهي غارقة في الصمت. انحنت المرأة بقوة أمام السلطان، وراحت تكيل له الشكر. ثم استأذنت بالخروج تاركة نيكول والملك نور بمفردهما.

سمعت نيكول صوت البوابة الخشبية الضخمة وهي تنغلق بهدوء خلف الخياطة. ظلت واقفة في مكانها فوق المنصة، شاعرة بالوحدة بشكل غريب، وبالغباء بشكل غير اعتيادي.

- أي من تلك العباءات ستكون ثوب زفافي؟

سألته ذلك وهي تنزل عن المنصة.

رفع السلطان رأسه إلى الأعلى وقال: «وهل لذلك أهمية؟».

كلا، لا أهمية للذلك. إنها تحاول فقط إجراء حديث تملأ به ذلك الصمت المريك. فهي لن ترتدي أياً من تلك العباءات على أي حال.

- هل أنت غاضب مني؟

مدّ يده نحوها قائلاً: «كلا، على الإطلاق. تعالي واجلسي بقربي بحيث يمكننا التحدث بارتياح».

تحركت لتجلس على الأريكة المقابلة، إلا أنه هزّ رأسه وقال واضعاً يده على الأريكة الناعمة التي يجلس هو عليها: «هنا».

جلست نيكول إلى جانبه بحذر شديد. فسألها: «هل تشعرين بالارتياح؟».

تجاهلت نبرة السخرية التي يضمنها سؤاله وقالت: «نعم».

طوى ذراعيه خلف رأسه وراح يتأمل وجهها وتعابيره التي تنم عن الصفاء، وسألها: «هل أعجبتك الأثواب التي ستُصمم منها العباءات؟».

- أعتقد أنني أشرت من قبل إلى أنني لست شغوفة بالموضة.

- لكن الصحف والمجلات تتحدث دوماً عن اهتمامك الشديد بالأناقة. ألست أنت الأميرة المفضلة لدى مصممي الأزياء؟

شانتال هي كذلك بالتأكيد. أشهر المصمّمين يتسابقون على تصميم أثواب للأميرة شانتال ثيبوديت ذات الجسم النحيل والقوام الرشيق، أرملة لاكروا الجميلة. لطالما كانت شانتال وهي الابنة الكبرى لأسرة دوكاس محبوبة من الناس، لكن بعد زواجها وترمُّلها، أصبح الظهور في المناسبات مربكاً لها أكثر فأكثر.

- إن حفاظ المرء على صورته أمام الناس حمل لا يستهان به. ولطالما فكرت أن وسائل الإعلام تعطي أهمية مبالغ بها للمظاهر، يا جلالة الملك، وأنا شخصياً أكره فكرة الاهتمام الزائد بالثياب والأناقة، فيما هناك مشكلات عالمية كبرى تفوق هذه المواضيع أهمية.

- إنك تفاجئينني دوماً.

وابتسم السلطان ابتسامة خالية من الرياء، ابتسامة وصلت إلى عينيه وأبرزت عمق الأخاديد حول فمه. إلاّ أن دفء ابتسامته تلك أصابها بالذعر. جف فم نيكول وهي تراه مرتاحاً في جلسته، وجسمه ينضحّ بالرجولة والقوة، وسألته: «وهل هذا أمر جيد؟».

- نعم.

تلاشت ابتسامته لكن الدفء لم يفارق عينيه. وتابع يقول: «هل تعلمين لماذا اخترتك أيتها الأميرة؟».

صعب على نيكول أن تركز أفكارها وهو ينظر إليها على هذا النحو. وقالت: «أعلم أنك أردت أن تتزوج أميرة تنتمي إلى إحدى الجزر المتوسطية».

تردّد قليلاً قبل أن يتابع متلفظاً كل كلمة من كلماته بعناية تامة: «لقد اخترتك أنت لأنني أحترمك. وأعتقد أنك مثلي تماماً، فأنت تدركين معنى المسؤولية، ومعنى أن تكوني أميرة منتمية إلى أسرة دوكاس المالكة. إن إخلاصك وحسّ

الواجب لديك يجعلان منك شريكة مثالية».

لم تعد نيكول تستطيع التنفس، فهي تفتقد لحسّ الواجب الذي تملكه شانتال. أما إخلاصها فهو لأسرتها فقط، ولهذا هي هنا الآن. ليس من أجل ميليو، بل من أجل شانتال وليلي.

- الزواج الذي لا يقوم على أساس الحب لا يدوم طويلاً.

أتى صوته عميقاً ونبرته متأملة، وهو يقول: «كان زواج والديّ مدبّراً إلاّ أنه دام قرابة خمسين عاماً».

- إنهما محظوظان.

- زواج جدّيك زواج مدبّر أيضاً، وهما ما يزالان معاً حتى اليوم. ولا يمكنك أن تقولي لي إن أحدهما لا يهتم للآخر بصدق وعمق.

جدّها ريمي متعلّق جداً بجدتها أستريد. إنهما زوجان مثاليان، وقد أمضيا حياتهما معاً، حتى إنه يخيل إليك أنه لا وجود لأحدهما دون الآخر. أخيراً قالت نيكول بعد أن استعادت قدرتها على الكلام: «إنهما يحبان بعضهما البعض. إنهما شخصان رائعان أيضاً».

ابتلعت ريقها مذكرة نفسها بأن ليس عليها الإجابة على الأسئلة كأنها نيكوليت. عليها أن تتقمص شخصية شانتال، وأن تفكر مثل شانتال. فقالت: «لهذا السبب قبلت بالزواج من الأمير أرماند».

ثم أضافت بخشونة: «إذا كان جدّاي يعتقدان أنني وأرماند نشكل ثنائياً مناسباً، إذن...».

وهزّت كتفيها إلاّ أنها لم تشعر باللامبالاة، فأرماند كان من أحقر صنف من الرجال. من الصنف الذي يهين المرأة جسدياً وكلامياً. إنه من الرجال الذين لا يشعرون بقوتهم إلاّ إذا أخضعوا المرأة التي تحبهم وتعتمد عليهم إلى سلطتهم واستعبدوها.

- أخبرتني الليلة الماضية أن ليلي ليست سعيدة. أخبريني عن حياتها في لاكروا.

تردّدت نيكول، غير واثقة إلى أي حد يمكنها أن تتحدث عن ذلك، وماذا عليها

أن تقول.

- أسرة والدها تتحكم بها بتعسّف.

- بتعسّف؟

ارتفع حاجباه وقال مفكراً: «إنه تعبير أميركي مخيف. لم أظن يوماً أنك تستخدمين مثل هذه التعابير. شقيقتك نيكوليت تتحدث بهذه الطريقة».

هل يمكن أن يكون أكثر غطرسة بعد؟ فجأة ثارت ثائرة نيكول، فهي تعشق القتال في سبيل ما تؤمن به، وترحب بكل فرصة سانحة للهجوم. وإذا بها تقول بنزق: «نعم، إنها كذلك. ولسوء الحظ، التقطت بعضاً من تعابيرها، فقد قضينا معاً لتونا أسبوعاً كاملاً في ميليو».

ضاقت عينا مالك قليلاً عند زاويتيهما وقال: «آه، هذا يفسر الأمر».

وتوقف قليلاً قبل أن يقول: «لأنني كنت أتساءل لِما أنت ثائرة على هذا النحو منذ قدومك. لطالما سمعت أنك شانتال الهادئة، التي تتحكم بتصرفاتها وتسيطر على انفعالاتها».

آه، نعم. فشانتال هي القطة الفارسية، ونيكول هي النمرة، أما جويل فهي القطة الأليفة المدلّلة.

- ربما غيّرتك تلك السنوات التي عشتها في لاكروا.

التقت نظراته بنظراتها وتشابكت معاً، ثم تابع يقول: «لقد جعلتك أقوى، أكثر شراسة وأكثر سخطاً».

- أكثر سخطاً؟

- نعم. فأنت تبدين غاضبة.

لا فائدة من النقاش في هذه النقطة. إنها غاضبة جداً، قالت نيكول بعد لحظات صمت طويلة: «أنت على حق. فأنا أشعر بالاستياء».

وعضّت على باطن شفتها وعادت تقول: «أشعر باستياء كبير».

فهي تشعر بالحسرة في قلبها لأنها لم تعرف بمأساة شانتال حتى وقت متأخر، بعد أن تجاوزت هذه الأخيرة جروحها مع أنها لم تنسها.

أخذت نفساً عميقاً لتهدىء نفسها وتكسب بعض الوقت، ثم قالت: «أعتقد أن الناس يجدون من الأسهل عليهم أن يتجاهلوا أولئك الذين يحتاجون إلى مساعدتهم. إذ يكفي أن يملؤوا بطونهم بالطعام ويناموا على سرير مريح لكي تنتهي مشاكل العالم بأكملها».

غدت نظرات مالك أكثر حدة وسألها: «ما الذي حصل في لاكروا؟».

تخيّلت أمام عينيها هيئة شانتال الكئيبة، بعينيها الحزينتين اللتين حفر فيهما الألم العميق الذي عانت منه طويلاً، وقالت: «ما الذي لم يحصل في لاكروا؟».

- علمت أن زوجك لم يكن... زوجاً صالحاً، أليس كذلك؟

جاء صوت مالك عميقاً ملؤه الاهتمام.

غرزت نيكول أظافرها في راحة كفها. لا بأس من إخبار السلطان بمثل هذه الأمور ففي النهاية، إذا كانت تريده أن يساعدها في إنقاذ ليلي، فهي تحتاج إلى تعاطفه معها. والطريقة الوحيدة التي تجعله يتعاطف مع ليلي، هي معرفته للحقيقة. لكن قول الحقيقة أمر بالغ الصعوبة، كما أنه مؤلم ومخجل. وهي تعرف أن شانتال ستغضب منها إن علمت أنها تتحدث بذلك إلى أي كان.

راح مالك يطرق بأصابعه الطويلة السمراء على الأريكة وسألها: «هل قام بضربك؟».

امتلأت عينا نيكول بالدموع؛ اللعنة عليك يا أرماند، فلتذهب إلى الجحيم. لم يكن يحق لك أن تضع يدك على شانتال، ولا يحق لك أن تسحقها كما فعلت.

- نعم.

راحت عينا مالك تبحثان عن عينيها، وسألها: «هل تعرّض بالسوء لابنتك؟».

ابتلعت ريقها قائلة: «كان يعاملها بخشونة».

إنها لا تود التحدث عن زواج شقيقتها، ولا ترغب بنشر تلك الأسرار الفظيعة. وفكرت أن الأمر مخجل حقاً.

أحسّت بوخزة من عدم الارتياح، وبحاجة تدفعها إلى الوقوف، إلى التحرك،

إلى الهروب من هذا الشعور المؤلم الذي يملأ قلبها. لقد عانت شانتال بما فيه الكفاية، وعليها الآن أن تنقذها، أن توفر لها فرصة للتمتع بالحرية والاستقلالية. أجبرت نفسها على التركيز، فابتلعت ريقها قائلة: «أريد إخراج ليلي من هناك. أريدها بعيداً عن لاكروا».

ثم أخذت نفساً عميقاً وبطيئاً قبل أن تتابع: «أنت الوحيد الذي يستطيع إخراجها من هناك».

- ألا يسمح لها جدّاها بمغادرة البلاد؟

نظرت نيكول مباشرة إلى عينيه، قائلة: «يمكن إقناعهم بذلك».

أما مالك فلم يتفوه بكلمة. وشعرت نيكول بالغصة تكبر في حلقها، إلا أن ذلك جعلها أكثر تصميماً. يجب إخراج ليلي من لاكروا، ويجب تحرير شانتال. نظرت إلى يديها ثم عادت تحدّق في وجهه مضيفة: «هناك وسائل إقناع كثيرة. أعتقد أن جديها سوف يرضيان... بمكافأة مادية.. إذا ما رغبت بذلك».

- أتعنين بأن أقوم برشوتهما؟

- ذلك ممكن.

- إنه حلّ يائس.

ابتسمت نيكول لكن عينيها بقيتا قاسيتين وبشرتها باردة، وقالت: «وأنا امرأة يائسة».

وقف مالك ومد لها يده قائلاً: «تعالي لتتمشى، أصبح الجو خانقاً هنا».

وضع مالك ذراعه بخفة وارتياح حول خصرها فيما هما يسيران من القصر إلى فناء خارجي واسع. دفء جسده بعث في كيانها موجة من الأحاسيس الدافئة. إنها ترغب بأكثر من ذراعه الملتفه حولها، إنها تتوق إلى الإحساس بجسمه بأكمله، أخذت نفساً عميقاً، ثم أخرجت الهواء من رئتيها ببطء.

صوت المياه المتدفقة ساعد نيكول على تهدئة أعصابها، فراحت تصغي إلى خرير المياه التي بدت لها باردة ومنعشة. شعرت بالسلام كما لم تشعر منذ عدة أيام.

ها هي ليلة أخرى من النوم المضطرب تمر على نيكوليت. وها هو صباح آخر

يأتي وهي لا ترغب بالنهوض من سريرها. كلما زاد إعجابها بمالك، كلما غدت تمثيليتها أكثر صعوبة. لكن علياء لن تسمح لنيكوليت بقضاء نهارها في السرير. قالت لها وهي تربت على الغطاء الذي سحبته نيكوليت إلى ما فوق رأسها: «يجب أن تنهضي، فسوف تتأخرين».

- إنه مجرد درس في اللغة.

- لكن اللايدي فاطمة بانتظارك. كما أنني أحضرت لك فنجاناً من القهوة الإيطالية. وأنت تحبين القهوة الإيطالية.

هذا صحيح، فنيكول تحب قهوتها الصباحية.

سألتها بصوت مكبوت قادم من تحت الغطاء: «ماذا الذي أيضاً في برنامج اليوم؟».

ترددت علياء، وأدركت نيكوليت معنى ذلك. إنه يعني أن عليها أن تقضي يوماً منهكاً آخر.. دروس، تحضيرات، مآدبات.. ترافقها فاطمة خلالها كلها.

حاولت علياء ما في وسعها لتشجيعها فقالت: «الليلة هي موعد عشاء الولاية. والملك نور هو من سيصحبك بالتأكيد. كما أن إحدى عباءاتك الجديدة أصبحت جاهزة، ويمكنك أن ترتديها هذا المساء حين يعرفك الملك نور إلى مساعديه ومستشاريه».

أنزلت نيكوليت الغطاء ببطء. بقدر ما ترغب في البقاء في السرير وتجنب الدروس والتحضيرات، كانت تعلم أن ذلك مستحيل. كما أنها تتوق إلى رؤية مالك مساءً. فبطريقة ما، غدت رؤيته الشعاع الذي ينير أيامها.

بعد مضي ساعات، وبعد انتهاء دروس اللغة، اصطحبتها فاطمة في جولة في أنحاء القصر.

خلال قيامهما بجولتهما، قامت فاطمة بفتح النوافذ الخشبية ذات اللون الذهبي الباهت. فتسللت أشعة الشمس إلى الداخل. نظرت نيكوليت من إحدى النوافذ، لترى السماء الزرقاء التي تشوبها بعض الغيوم، ولاحت لها في البعيد سلسلة جبال الأطلس وأشجار النخيل المنتشرة فوق مساحات واسعة من الأراضي. للحظة، شعرت نيكوليت أنها عادت بالزمن إلى الوراء.. مئة عام،

ثلاثمئة عام، أو ألف عام.. هنا لا تتغير الأشياء بسرعة. هنا، تبقى بعض العناصر ثابتة لا تتغير.. الشمس الساطعة، الصحراء الحارة، إيمان الشعب الراسخ. وفكرت نيكول أن الملك مالك نور هو جزء من هذه العناصر. فعلى الرغم من إرثه الفرنسي وثقافته الإنكليزية، إلا أنه يبقى صلباً كالسماء الممتدة فوق الصحراء.

في طريق عودتهما إلى جناح نيكول، التقت المرأتان بالملك مع اثنين من مستشاريه. حياهما مالك بطريقة رسمية مستخدماً لغة عربية مرحبة، ثم عانق نيكول عناقاً خفيفاً وقدمها إلى مساعديه. ردت نيكوليت تحيته بتهذيب، هامسة بكلمات ترحيب. إلا أنها لم تعد تذكر ما قالته بالتحديد، فقد فاجأتها موجة الدفء التي غمرتها إثر لقائه. لم تدرِ لِمَا جعلتها لمسته تفقد تركيزها وشتتت أفكارها، وفجأة لم تعد واثقة ما الذي تفعله هناك، أو لِمَا هم جميعاً في ذلك المكان. رفعت بصرها لتنظر إلى وجه مالك، فإذا تعابيره ما تزال كما كانت عندما عانقها... ودية، لطيفة، ومرحّبة، بالإضافة إلى شيء آخر.. أهو حس التملك؟

هزّت نيكول رأسها لتستيقظ من تأملاتها. لا، ليس التملك.. فهي ليست ملكه. إنها لا تنتمي إلى هذا المكان، وهي لن تبقى هنا. إلاّ أن التفكير بالمغادرة، وبتركه جعلها تشعر بألم حقيقي. فهو قد أيقظ في داخلها مشاعر كانت مدفونة في أعماق أعماقها، هذه المشاعر لا علاقة لها بالانجذاب الجسدي إليه، بل تتعلق بحياتها برمتها، وربما... بالحب.

إنه يتحدث معها ويطرح عليها سؤالاً: «كيف كان يومك؟».

بذلت نيكول جهدها لتجد الكلمات المناسبة، وقالت: «جيداً، شكراً لك. أدهشني تاريخ هذه البلاد، كما أدهشني جمالها. كما أن القصر هو تحفة حقيقية».

ابتسم لها مالك، فظهرت الخطوط حول عينيه على شكل مروحة، وقال: «أنا سعيد لأنك تتمتعين بأوقاتك».

إنها تحب الطريقة التي يبتسم لها بها، كانت تلك ابتسامة صغيرة، بالكاد يمكن تمييزها. لكنها أدركت أنها موجهة لها وحدها.

ثم أومأ برأسه للآخرين ما يعني أن فاطمة ومساعديه عليهم أن يغادروا هذا

المكان. انتظر مالك إلى أن اختفى الثلاثة عن ناظريهما، وتابع يقول وقد تخلّى عن نبرته الرسمية: «إذن، يمكنك أن تشعري بالارتياح هنا، أليس كذلك؟».

- كيف لا، وأنت قد فكرت بكل ما يمكن أن يتخيله المرء لتأمين راحتي؟

امتلأت عيناه بالدفء والتمعتا ببريق فضي: «وأظن أنني أتمتع بخيال واسع».

أدركت نيكول أنه لا يتكلم الآن عن تأمين وسائل الراحة لها. ومرة أخرى شعرت بأنها تنجرف إلى عالم آخر مثير، عالم يضمها والملك نور فقط. أصبحت محادثتهما حميمة أكثر فأكثر، وشخصية إلى حد بعيد، وغدت تلميحاتهما أكثر وضوحاً.

وافقته نيكول بسخرية: «أنا واثقة أنك تملك خيالاً واسعاً. فمعظم الرجال يظنون أنهم كذلك».

- ألديك شك في سعة خيالي؟

- كونك رجلاً.. لا بأس بما لديك من سعة الخيال.

- أتقيسين بمقياسين؟

- بالتأكيد.

هزّ مالك رأسه: «أنت تدفعينني للردّ على هذا التحدي».

حاولت إبقاء رأسها مرفوعاً، وقالت: «أنا لا أتحداك، يا جلالة الملك. أنا فقط أقول أمراً واقعاً».

- أمر واقع؟

- نعم. معظم الرجال يعتقدون أنهم يعرفون ما تريده النساء وما تحتاج إليه..

شبك ذراعيه فوق صدره وقال: «آه، عزيزتي. هذا يطرح إشكالية جديدة. لم أكن أعلم أنك متحيزة إلى بنات جنسك».

- أنا لست كذلك.

رفع مالك إحدى يديه في حركة متغطرسة وأكد قائلاً: «بل إنك كذلك. لكنني على العكس منك تماماً، لا أدخل في نقاشات لا نهاية لها، فالكلمات لا توصل إلى شيء. أنا شخصياً أفضل العمل».

وتحرك إلى الأمام وأمسك بوجهها بين يديه، ثم قرّبها منه. راح يمرر أصابعه على عظمتي خديها، ما أرسل ارتعاشة في جسد نيكول وهي ترى تعابير وجهه القوية. وشعرت بالترقّب، والشوق.. وأدركت أنه سيعانقها.

ارتعش جسمها تحت لمسة يده، لا سيما بعد أن تنشقت رائحة عطره العابق بروائح الأرز والقرفة تخالطها عذوبة ورائحة بهار. وتجاوبت مع عناقه بصورة تلقائية وكأنها تنتظره منذ زمن بعيد. لم يكن عناقه مسيطراً أو آمراً أم متطلباً.. بل عناقاً لطيفاً، بسيطاً، مستكشفاً.. كما أنه بدا مذهلاً.

وتجاوب جسدها معه مرسلاً موجات من الدفء في كيانها بأكمله. لم تشعر بمثل هذا التوق إلى رجل منذ زمن طويل.

عاد مالك يمرر يده على خدها، ثم خلف أذنها، فصدرت عنها تنهيدة ارتياح. راح قلبها يضرب بقوة، فتراجعت إلى الخلف مبتعدة وهي تقول بصوت مخنوق: «هذا.. ليس سيئاً.. كبداية».

بدا وكأن تعابير وجهه تسخر منها، والتمعت الحرارة في عينيه، تخالطها لمحة من الاعتداد بالنفس، وقال: «لقد أعجبك ذلك، أليس كذلك؟».

- ليس هذا ما قلته..

- لكنه أعجبك.

وفكرت نيكول، يا له من رجل متغطرس! وله الحق بأن يكون كذلك. فعناقه قد أذاب عظامها وأيقظ في داخلها أحاسيس متنوعة. إلا أنها قالت: «هذا ما تقوله أنت..».

ابتسم مالك وقال: «سوف نعيد الكرة في وقت لاحق، لكن لسوء الحظ، لدينا التزامات قبل ذلك. هل تذكرين أن لدينا حفل استقبال هذا المساء؟ إنه عشاء رسمي».

أومأت بالإيجاب ورأسها لا يزال يدور إثر عناقه، ثم قالت: «سوف التقي بأعضاء مجلس الوزراء وزوجاتهم».

أخفض رأسه ليهمس في أذنها: «أنا أود لو أنهم يعجبون بك كما أنا معجب بك

www.elromancia.com

تماماً».

بعد عودتها إلى جناحها، شعرت نيكوليت بالارتعاش وهي تأخذ حمام بخار. إذ كانت مشاعرها ما تزال مضطربة وما تزال تشعر بالتوتر في داخلها. فتلك الكلمات القليلة التي قالها مالك بصوته الأجش المثير بعثت الاضطراب في نفسها كما فعل عناقه تماماً.

إنها تعجبه. ليس لأنها أميرة أوروبية فحسب، وليس لأنها تؤمن له تحالفاً قوياً، إنها تعجبه من أجل شخصها فقط. وهذا وحده يجعلها تشعر بالسعادة. فمع أنها لا تنوي الزواج من أي كان في الوقت الحاضر، إلاّ أن الملك نوريثير فضولها.

سمعت همهمة علياء في غرفة نومها، وهي تحضر لها ثيابها من أجل حفل الاستقبال. وتساءلت، هل سيعانقها مالك مرة أخرى؟ هل سيتسنى لهما أن يبقيا بمفردهما لبعض الوقت؟

سمعت وقع أقدام علياء فوق الأرض الرخامية، وهي تروح وتجيء من غرفة النوم إلى غرفة الثياب، ثم أحسّت نيكول أنها خرجت من غرفة الثياب حين قالت لها: «أتودين ارتداء العباءة الخضراء أم الصفراء؟ لقد أحضروا لك ثوبين بعد ظهر هذا اليوم».

تحركت نيكول في مكانها في المغطس، وتحركت معها بقعة زيت الياسمين العطري التي تبدو على شكل بركة صغيرة على سطح المياه. وسألت: «أيهما أعجبتك أكثر؟».

- الخضراء، كما أظن. فلونها يتناسب جداً مع لون شعرك الأسود الجميل.

شعرها الأسود! جلست منتصبة ولامست بيديها شعرها الداكن الذي ينسدل بخصلات ملتفة. إنها تبدو سمراء ذات شعر داكن. لكن ما زال من الصعب عليها أن تفكر أنها كذلك فعلاً، أتراها ستتمكن من العودة إلى شخصية نيكول دوكاس الشقراء؟

بعد مرور أربع ساعات، انتهى حفل العشاء الطويل. لكن بدلاً من أن يقوم الملك نور بتسليتها، قام بتشجيع ضيوفه على التعرف على بعضهم البعض

والاختلاط مع بعضهم البعض على الطريقة الغربية، محاولاً بذلك أن يوفر لها الفرصة لتلتقي بالمزيد من أعضاء مجلسه. لكن عندما نظر إليها بعد قليل ورآها محاطة بعدد كبير من النساء بمن فيهن قريبته فاطمة، أدرك مالك خطأه التكتيكي. إذ لم تحصل نيكول على فرصة للقاء أي من أولئك الأعضاء، بل وجدت نفسها محاصرة في إحدى الزوايا تحيط بها مجموعة من النساء.

أومأت نيكوليت ثم انحنت قليلاً معلنة للأخريات أنها سوف تتركهنّ، إلاّ أن فاطمة أمسكتها من ذراعها مؤنبة. وبدا له أن فاطمة تتصرّف بقسوة معها.

انخفضت رموشه وهو يرى نيكول وقد ابتعدت قليلاً وراحت تركز نظرها على شيء خلف كتفها، فأدرك أنها تحاول جاهدة السيطرة على غضبها. ما الذي قالته لها فاطمة للتو؟

فجأة أدارت نيكول رأسها ورأته. التقت نظرات عينيها الزرقاوين بنظراته والتوت زاوية فمها فيما غمت تعابير وجهها عن الاستياء، وكأنها تقول له: أنقذني. لم تكن تظهر الشكوى بل بدت عليها التسلية من جهة والاستسلام من جهة أخرى، تماماً كما يجدر بالأميرة المتمدنة أن تبدو.

بدا واضحاً أنها مرت بمثل هذا الموقف من قبل، ولأكثر من مرة. فلطالما لعبت دور الأميرة، ضيفة الشرف في حفلات العشاء والحفلات الخيرية، فهي على الرغم من كونها الابنة الثائرة في الأسرة، وعلى الرغم من تلك الصبغة السوداء التي تغطي شعرها الذهبي الرائع، فهي لا تتخلى عن القيام بواجبها مطلقاً.

سوف تكون مليكة رائعة! لم يخطر ببال نيكول أنها بأخذها مكان شانتال، منحت مالك كل ما يتمناه في عروسه.

شق مالك طريقه عبر الغرفة، فأفسحت له السيدات اللواتي يحطن بنيكول الطريق وهنّ ينحنين احتراماً. ثم تركنه وحده مع خطيبته، باستثناء فاطمة التي بقيت إلى جانب نيكول.

- هل تتمتعين بالسهرة؟

رمقته نيكوليت بنظرة ملؤها السخط، ثم زمت شفتيها قائلة: «إنها حفلة جيدة،

إذا كان المرء في الثمانين من عمره».

إذن، فهي تشعر بالضجر. وسألها: «أتشعرين أن الوقت يمر بطيئاً؟».

- جلالة الملك، لا أحد يقوم بأي شيء.

- وما الذي تريدين القيام به أنت؟

- تبادل الأحاديث العادية لن يشكل أي ضرر، كما أن سماع بعض الموسيقى قد يفسح المجال للرقص.

هزّ مالك رأسه بأسف ثم ابتسم قائلا: «لا يمكننا أن نرقص معاً رجالاً ونساءً، لكن يمكنك الرقص مع السيدات إذا ما خرجنا نحن الرجال من هنا».

- أتريدني أن أرقص مع النساء؟

واحمر خدا نيكول وأعجبه ذلك. إذ قلّما رأى خديها يحمران. والليلة بصورة خاصة، مع هذه العباءة الخضراء اللون، بدا اللون الوردي فيهما منسجماً مع بشرتها التي اكتسبت بعض اللون الداكن.

- بالطبع. فالرقص مع النساء أمر مثير للحماسة.

انفجرت نيكوليت بالضحك، وحاولت أن تخنق ضحكتها بأن وضعت يدها على فمها، لكن الأمر لم ينجح. فكلما حاولت التوقف عن الضحك، كلما زاد ضحكها إلى أن امتلأت عيناها بالدموع وكادت تختنق. ثم قالت: «إنه أمر سخيف».

بذا الذعر على وجه فاطمة إلا أن مالك وجد ضحك نيكول مثيراً... ملطفاً للأجواء. فقد كانت تضحك بكل جوارحها، وبدا ضحكها معدياً ما جعله يشعر بالارتياح وكأن ضحكها أصاب وتراً حساساً في داخله، فشفاه من معاناة أصابته منذ عام مضى.

إنه يحتاج إلى الضحك، يحتاج إلى الشعور بالأمل، ونيكوليت أعطته هذا الأمل. أو ليس الأمل بحد ذاته أمراً رائعاً؟

انحنى قليلاً نحوها، وهمس في أذنها متوخياً ألا تسمع قريبته ما يقول: «يمكننا أن نغادر هذا المكان. أنا واثق أن بإمكاننا الحصول على بعض التسلية إذا ما عدنا إلى القصر».

٥ ـ باقة ورد وابتسامة

توهجت الحرارة في عيني نيكول، واضطربت شفتاها. ولاحظ مالك حركتهما الخفيفة تلك فتصلّب جسده على الفور.

حين عانقها في النهار، أمل أن يتمكن من السيطرة على تلك الجاذبية التي يشعر بها نحوها، وأن يكبح أفكاره الغريبة بشأنها. لكنه لم يستطع إبعاد أفكاره عنها، فذلك العناق لم ينجح في كبح مخيلته الواسعة. وكل ما كان يتمناه هو البقاء بجانبها طوال الوقت.

كان عليهما أولاً أن يودعا الحاضرين، واستغرق ذلك منهما عشر دقائق تقريباً. وعندما تمكنا من ذلك وسارا باتجاه السيارة، ظهرت فاطمة وطلبت من مالك إيصالها إلى منزلها في طريق العودة.

تأوهت نيكول في سرّها، فقد أملت بالعودة برفقة السلطان بمفردها، ما يسمح لهما بجلسة طويلة معاً. لكن الآن، وبعد مجيء فاطمة برفقتهما، لم تعد تلك الرحلة الطويلة ممتعة أو حميمة على الإطلاق.

دخل الثلاثة إلى سيارة الليموزين. وجلست نيكول إلى جانب فاطمة، أما السلطان فجلس في المقعد المقابل لهما. وعندما انطلقت السيارة من أمام مركز الولاية، سألها مالك: «هل سررت لرحيلنا أيتها الأميرة؟».

أقرت نيكوليت وهي تطلق تنهيدة صغيرة: «شعرت بالتعب هذه الليلة».

لقد شعرت بعدم الاستقرار هذه الليلة وكأنها لم تكن هي نفسها. فالطعام مختلف واللغة مختلفة وكذلك العادات. لكنها تدرك في أعماق نفسها أن الصداع الذي تشعر به ليس عائداً إلى كل ذلك، بل إلى الانجذاب القوي الذي تشعر به نحو

الملك نور.

حين عانقها، بث في كيانها مشاعر بدائية وفي النور الضئيل للسيارة رأت ابتسامته المقتضبة، ثم قال معترفاً بصدقها: «هل وجدت أن من الصعب أن تكوني الغريبة الوحيدة في الغرفة؟».

حرّكت نيكول كمي ثوبها الحريري الأخضر فانسابت حبات الخرز الفضية اللون فوق ظاهر يديها، وأجابته قائلة: «ليست المرة الأولى التي أجد نفسي فيها الغريبة الوحيدة في حفلة رسمية. ولكنني أعترف أن هذه الأمسية بدت.. مختلفة».

تابعت الليموزين سيرها عبر طرقات المدينة الهادئة، فراحت تتهادى من جادة محاطة بالنخيل إلى أخرى. مرّت دقائق صمت طويلة لم يلطفها سوى نسمات الهواء البارد الصادرة عن مكيّف الهواء.

عندما وصلا إلى القصر، لم يكن مالك مضطراً لمرافقة نيكول إلى غرفتها، إلاّ أنه أصرّ على القيام بذلك. وشعرت هي بالسعادة. حسناً، إنه نوع من السعادة فقط، فقد شعرت أيضاً بثقل كبير في قلبها. إذ لم يعد من السهل عليها بعد اليوم إنجاز ما جاءت لأجله إلى هنا وتجاهل أمور قررت من قبل أن تتجاهلها. إنها تخدع رجلاً تكُنُّ له الكثير من الاحترام والتقدير.

الهدوء المخيّم على القصر، وانعكاس ضوء القمر على الأرض الرخامية حولها، جعلا نيكوليت تشعر بالوحدة لأول مرّة منذ قدومها إلى هنا. سألت مالك بصوت يكاد لا يسمع: «هل فكرت مرّة بأنك، ربما، اخترت المرأة غير المناسبة؟».

أخفض مالك بصره وحدّق إلى وجهها وقد عكست تعابير وجهه الكثير من الاهتمام.

- هل تعتقدين أنني اخترت المرأة غير المناسبة؟

هزّت كتفيها ما جعل الثوب الحريري يتحرك بخفة حول جسدها، ثم قالت: «لا أعلم. ربما أنا أشعر بالارتباك لأنني لا أعلم لماذا اخترتني أنا. لِمَ لم يقع اختيارك على امرأة أخرى؟».

وصلا أمام الجناح المخصص لها، ووقفا أمام باب غرفتها. فقال مالك وهو

يفرك خده: «كان هناك احتمال بأن أتقدم لطلب يد جويل بدلاً منك».

ولِمَ يختار جويل؟ إنها صغيرة جداً!

- جويل! إنها صغيرة جداً عليك.

- وربما أنت كبيرة جداً بالنسبة إليّ.

شعرت نيكول بالنيران تتوهج في خدّيها وقالت: «لكنك تكبرني بعشر سنوات على الأقل».

- دعينا نكون صادقين شانتال. هل هذا ممكن؟ أنا متحمس للزواج ولإنشاء أسرة. أما أنت، وعذراً على ما سأقوله، فتبدين لا مبالية على الإطلاق. وأنا أفضل عروساً صغيرة في السن، متحمسة لاختبار الزواج والأمومة، على زوجة ترهبها فكرة الزواج.

- لكن هناك ثلاث أميرات في أسرة دوكاس. وأنت لم تذكر نيكوليت.

لوّح مالك بيده مزيحاً الاقتراح جانباً، وقال: «لم تكن يوماً أحد الخيارات».

- ولِمَ لا؟

قام بإيماءة أخرى تنم عن نفاد الصبر قائلاً: «إنها غير مناسبة».

- ولِمَ لا؟

رمقها بنظرة حادة: «إن كان حديثي يزعجك، فدعينا لا نكمل الحديث».

- إنه يزعجني فعلاً، لكن علينا متابعته، لأنني أريد أن أفهم. فنيكوليت محبوبة أكثر منّا جميعاً....

- نعم. لكن زوجة الملك نور ومليكة بَرَكة يجب أن تكون ليس فقط امرأة رائعة، بل امرأة خالية من أي عيب.

من الواضح أن شانتال لم تخطىء حين قالت لها إن سمعتها تقضي على كل فرصة لديها في الحصول على زواج جيد.

- مع أنك لم تلتق بها أبداً، كيف يمكنك أن تكون جازماً بهذا الشكل؟

لم يبد مطلقاً أن لديه أي نيّة في الاعتذار عمّا قاله، بل أجاب: «من المعروف أنها

www.elromancia.com

تفضل رفقة الرجال المستهترين الذين يسعون خلف النساء».

- أنت أقمت علاقات عديدة مع النساء أيضاً.

التوت شفتاه، ولكنه لم يكن يبتسم حين قال: «من الطبيعي أن يقيم الرجل علاقات مع العديد من النساء».

- ولمَ تمنع المرأة من ذلك؟

- لأن عليها الحفاظ على نفسها إلى ما بعد الزواج.

خطرت ببالها على الفور شانتال المسكينة، التي تزوجت وهي في الثانية والعشرين من عمرها، ولم تكن لديها أي خبرة بالعلاقات بين الجنسين. وقد تزوجت من رجل لم يفكر لحظة واحدة بإسعادها أو بتوفير الراحة لها، كما لم يكلّف نفسه عناء إحاطتها بالحب الذي يحيط به الرجل عادة زوجته.

- زوجي السابق لم يهتم يوماً بإسعادي مع أنني كنت مخلصة له.

- إذن، لقد فشل في القيام بواجبه الزوجي.

- أنا واثقة أن العديد من الرجال فاشلون في القيام «بواجبهم الزوجي». فمعظمهم لا يبالون سوى بأنفسهم، ولا يشغلون بالهم بتأمين السعادة لزوجاتهم.

الدهشة التي ظهرت على وجهه، والصمت الذي تلا كلماتها، كانا أبلغ من أي كلام. وأدركت نيكول أنها ذهبت بعيداً في هذا النقاش، فراحت تضغط على القفّازين بين يديها بقوة وهي تشعر كأنها تجمّدت في مكانها. لماذا تصرّ على أن يغيّر رأيه بنيكوليت؟ ما همّها إن كان لا يكن لها الإعجاب؟ فليفكر كما يشاء. من السخافة أن تتغلب أنانيتها على حسّ المسؤولية لديها، إذ إن من واجبها حماية شانتال والحصول على وعد من الملك بإنقاذ ليلي.

بعد مغادرة مالك، دخلت نيكول إلى جناحها الخاص والامتعاض يغلي في داخلها. ارتدت ثياب النوم وخرجت علّها تتمكّن من تهدئة مشاعرها، ثم راحت تتمشى في الفناء الداخلي الملحق بجناحها متأملة البرْكة العميقة والنافورة الرائعة والتمثال الرخامي الذي يتوسطها. ومع أن الوقت أصبح متأخراً إلاّ أن الحرارة في الخارج ما زالت مرتفعة. وكاد الهواء المحمّل بالرطوبة أن يخنقها، ما جعلها تود

الدخول إلى الجناح المظلم البارد. لكنها لم تستطع الدخول، فهناك، في الداخل سوف تشعر بالاختناق أكثر، بل ستشعر بالخوف وبأنها وقعت في المصيدة.

في الفترة الأخيرة، بات مالك يشغل تفكيرها بصورة دائمة. أرادت إقناع نفسها بأن الأمر لا يتعدى كونه نوعاً من الفضول، أو الدهشة بسبب اختلاف ثقافتيهما، أو أنه نوع من الانجذاب الجسدي لا أكثر ولا أقل. إلاّ أنها تعلم في أعماقها أن المسألة تتعدى ذلك كله.

كيف يمكنها أن تخلّص نفسها من هذ المأزق الآن؟ لو أنه فقط معجب بالأميرة نيكوليت، لساعدها ذلك في التخلّص من شعورها بالذنب والأسى. لكنه لا يطيق نيكوليت. لقد بدا ذلك واضحاً منذ البداية، إنه لا يريد ولا يستطيع الزواج بنيكوليت لتصبح هذه الأخيرة مليكة بَرَكة.

إذن، هنا بالتحديد يكمن الحل لمشكلتها. إذا كانت لا تستطيع أن تطلب منه فسخ الخطوبة، فسوف تدفعه إلى التصرف بسرعة. ستستمر بالإدّعاء ما دام ذلك ضرورياً، وما إن تُصبح ليلي آمنة، سوف تكشف له عن حقيقتها... ستُخبره بأنها هي نفسها تلك الشقراء السطحية، تلك الأميرة العابثة التي يحتقرها. وعندئذٍ لن يقدم على الزواج بها. شبكت نيكول ذراعيها فوق صدرها، وأرجعت رأسها إلى الوراء وراحت تنظر إلى السماء الداكنة وهي تعض على شفتها لئلا تنفجر بالبكاء.

عليها ألاّ تبكي، بحق السماء! إنها ليست هنا لتبحث عن الحب الحقيقي، إنها هنا لتقوم بمهمة محدّدة. إنه مجرد عمل. هذا ما ذكّرت به نفسها أيضاً وهي تأوي إلى سريرها. إنها هنا كي تساعد أولئك الذين هم بحاجة ماسّة إليها.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، استدعيت فاطمة إلى مكتب مالك. كان مالك يتحدث على الهاتف، فجلست على أحد المقاعد المنخفضة في إحدى الزوايا، وانتظرت بفارغ الصبر أن ينهي محادثته الهاتفية.

أخيراً، عندما أقفل الخط، نظر إليها وكان يضع نظارتين ذات إطار داكن، ثم قال: «أتعلمين لِمَا أردت رؤيتك؟».

لم تُفصح تعابير فاطمة عن أي شيء، بل قالت: «أنا واثقة أنك ستُخبرني

بنفسك».

راح يتأمل قريبته للحظة طويلة، لقد أظهرت فاطمة نفوراً واضحاً من نيكوليت، وهو حتى الآن لم يعرف سبب هذا النفور. أهي الغيرة، عدم الشعور بالأمان، أم شيئاً أكثر عمقاً؟

- لاحظت موقفك العِدائي تجاه ضيفتنا.

أجابت فاطمة دون أن يرف لها جفن: «إنها لا تنوي الزواج بك».

- ليس إذا ما استمريتِ بتخويفها على هذا النحو.

رفعت فاطمة يدها اليمنى نافية اتهامه هذا وقالت: «إنها ذات شخصية مستقلة، وهي غير مهتمة ببلادنا، أو بثقافتنا. ولكي أكون صادقة معك، أظن أنها ليست مهتمة بك أيضاً».

قطّب مالك جبينه، فهو يوافقها من جهة ويعارضها من جهة أخرى. فلطالما كانت فاطمة ذكية وبعيدة النظر، إلاّ أنها لا تعلم شيئاً عن التفاعل الكيميائي أو عن الانجذاب بين شخصين. وفي هذا المجال يمكنه القول إن الأميرة تشعر بالانجذاب إليه. قد لا ترغب نيكول بالزواج به، إلاّ أنها مع ذلك تبدي اهتمامها به.

قام عن مقعده وتحرك نحو فاطمة، ثم وقف بالقرب منها وقال: «أنا لست قلقاً بهذا الشأن، فهي تحتاج إليّ. بلادها تحتاج إلى المساعدات التي سوف أقدمها لها».

هزّت فاطمة رأسها قائلة: «ماذا لو أخذت منك ما تحتاج إليه دون الاكتراث بما تبقى من الصفقة؟ ماذا لو لم تكن بحاجة إلى الكثير منك كما تظن أنت؟».

نقطة موفقة. لطالما كانت فاطمة ذكية، ومتفوقة في دراستها. كان بإمكانها أن تقوم بما يحلو لها في حياتها، إلاّ أنها اختارت البقاء هنا، في القصر. وبما أنها تنتمي إلى الأسرة المالكة، تختارت أن تعيش تحت رعايته، وذلك بعد وفاة والدها وانتقال والدتها للعيش في نيويورك. ولطالما تساءل مالك عمّا تفعله في حياتها، ومن تراه الرجل الذي سيتمكن من إقناعها بالزواج به.

أجابها بهدوء: «إذن عليّ أن أكون حذِراً. أليس كذلك؟».

ثم ابتسم لها. إنها فتاة جميلة ذات عينين سوداوين وخدّين مرتفعين أما ذقنها

فتدُلّ على القوة والصرامة وشعرها الطويل الأسود ذو ملمس حريري. تبدو فاطمة شبيهة بجدتها إلاّ أنها ورثت عن أبيها حدّة ذكائه.

- والآن، من الأفضل أن تذهبي، فلا بد أن تكون الأميرة بانتظارك لتلقي دروسها اللغوية.

كانت نيكوليت بانتظار فاطمة في غرفة الاستقبال، وهي تفكر بمسألة الدروس، وبأنها تخفي سرّاً غريباً. فاليوم هو ذكرى مولدها، ذكرى مولدها الحقيقي، إلاّ أنها لا تستطيع الاحتفال بالمناسبة لأن أحداً لا يعلم من هي حقاً.

من الغرابة أن تفكر أنها بلغت اليوم السابعة والعشرين من عمرها. وفجأة، بدا لها أنها كبيرة في السن، فعندما كانت شانتال في مثل سنها كان قد مضى على زواجها عدة سنوات. وهذا ليس حالها على الإطلاق...

وصلت فاطمة وسرعان ما سارت الدروس على ما يرام. وبعد قليل أحضرت لهما إحدى الخادمات صينية الشاي مع البسكويت المحلّى كالعادة، ثم انحنت الخادمة أمام نيكوليت قائلة: «سمّو الأميرة، إن جلالة الملك يود أن تنضمي إليه لتناول الفطور. وسوف أُرشدك أنا إلى مكانه».

ظهر التوتر على وجه فاطمة إلاّ أنها لم تحتج. وبعد قليل قامت نيكوليت وتبعت الفتاة عبر الممرات الداخلية في القصر، لتصلا إلى فناء داخلي رائع الجمال مخصّص للاستخدام الشخصي للسلطان.

كان مالك قد جلس إلى طاولة معدّة لشخصين، وقد وضع على الطاولة إناء زجاجي ذو لون أخضر داكن مليء بالأزهار المشرقة الألوان. قررت نيكول ما إن رأته أن تعتبر ذلك بمثابة احتفال بعيد مولدها، إذ يكفيها أن تكون الآن برفقته، وأن تبدأ يومها بتناول الفطور معه. فوجودها بقربه يعني لها الكثير...

- صباح الخير.

حيّاها مالك ثم انحنى ليعانقها مُرحباً وتابع يقول: «كنت أفكر بك».

سَرَتْ في جسمها ارتعاشة بسبب لمسته، ورائحة عطره وسألته: «أحقاً؟».

انحنى إلى الأمام فوق الطاولة، فبدا شعره الأسود لامعاً في الضوء الساطع. ثم

أجاب: «كما أنني أشعر بالذنب أيضاً».

- لماذا؟

- لم أكن لطيفاً في ما يتعلق بشقيقتك. أنا أعلم كم أشعر بالحب تجاه شقيقي وشقيقاتي ولا أحتمل أن يتكلم أحدهم بالسوء عنهم، ومع ذلك فقد تكلّمت بتعصُّب عن خصوصيات نيكوليت. فسامحيني.

نظرت نيكول إلى البعيد، شاعرة بالارتباك وعدم الارتياح معاً. إلاّ أنها قررت أن تكون واقعية في ردّها فقالت: «في الواقع، إنها ليست من النوع المستهتر كما تظن...».

إلاّ أن صوتها خانها فتوقفت قليلاً عن الكلام. على الرغم من اعتذاره، شعرت نيكول أن في صوته نبرة إتهامية وكأن نيكول حالة شاذة عن المألوف. أخذت نفساً متردداً مرتجفاً وتابعت تقول: «ربما لا تكون نيكول كنساء بَرَكة، لكنها فتاة طيبة، ولطيفة. وهي لا تتحدّث بالسوء عن أي كان. كما لا تطلق الأحكام على الآخرين. بالإضافة إلى أنها ليست هنا الآن لترد عليك أو على قريبتك فاطمة التي لا تتكلّم بشكل جيد عن أي كان».

بعد أن أنهت كلامها، شعرت نيكول بأنها استنفدت كل الكلام والمشاعر، كما تبخر لديها كل وهم حاكته حول حفلة عيد مولدها. إذ بدا لها أن هذا الصباح ليس وقتاً ممتعاً للمناسبة، بل إنه يوم رهيب آخر تحياه في الكذب. فقالت هامسة: «هلاّ عذرتني من فضلك».

- كلا.

فاجأها رفضه، فابتعدت عن الطاولة. قد يكون هو ملكاً على بَرَكة، لكنها أيضاً سليلة أسرة أوروبية مالكة.

- أود العودة لمتابعة دروسي مع فاطمة.

- على الرغم من كونها قاسية في أحكامها؟

- أفضّل قسوتها على قسوتك.

- لماذا؟

شعرت نيكول بالدموع تحرق عينيها وهي تنظر إليه. واجتاحتها موجة من المشاعر غير المتوقعة، حتى إنها لم تعد تستطيع الكلام. وإذا بمالك يكرّر سؤاله: «لماذا؟».

انهار كل ما تبقى من سيطرتها على نفسها وقالت: «لأنك تعجبني، ولا أريدك أن تبدو ضيق الأفق وذا تفكير محدود. كما لا أريدك أن تكون قاسياً في حكمك، فقط لأن نيكوليت ليست من الطراز الذي يعجبك من النساء. ما من أحد كامل الصفات، يا جلالة الملك. لكن حتى أولئك الذين ينقصهم الكمال قد يكونون نموذجاً رائعاً للحب والإخلاص».

- لقد قدمت لك اعتذاري...

- هذا ليس كافياً.

وارتعشت شفتاها وقد شعرت بموجة من التعاسة لم تستطع احتمالها فقالت: «يصادف اليوم عيد مولدها، ولا أظن أنها تستحق ذلك...».

قاطعها مالك بصوت يشبه الصراخ: «أعرف أن اليوم هو عيد مولدها. ولهذا أرسلت في طلبك هذا الصباح. أردت أن نحتفل معاً».

جاهدت نيكول كي تستعيد سيطرتها على نفسها، وراح صدرها يعلو ويهبط مع كل نفس عميق مرتجف.

- كيف علمت أن اليوم هو عيد مولدها؟ فأنت لا تطيقها.

وقف مالك وانحنى عبر الطاولة، ثم أمسك برأسها وعانقها قائلاً: «لأنك تعجبيتني، تعجبيتني كثيراً، حتى إنني حاولت أن أعرف كل شيء يتعلق بأسرتك».

تجمعت الدموع في عينيها حتى إنها باتت ترى ضبابية في الرؤية، لكن، إذا رمشت بهما فسوف تتساقط الدموع على الفور. وسألته: «كم تبلغ من العمر إذن؟».

- سبعة وعشرون عاماً.

وأمسك بإصبعها الصغير ومسح به الدمع الذي تجمع على رموشها السفلية، ثم قال: «وأعرف أنك قلقة عليها لأنها كبرت في السن ولم تتزوج بعد...».

نفضت نيكول يدها من يده وهي تقول: «هي ليست كبيرة جداً في السن».

- لكن، يجدر بها أن تكون قد تزوجت، أليس كذلك؟

ولكي يبرهن لها أنه قال ذلك كي يغيظها فقط عاد يعانقها من جديد. لكن هذه المرة كان عناقه مختلفاً، فقد أزال عنها التوتر، وأيقظ فيها مشاعر قوية ورغبات كافية.

غمرتها مشاعر الشوق إليه، وكادت أنفاسها تنقطع لشدة ما تتوق إلى عناقه والقرب منه. تطاولت لكي تقترب منه أكثر، وراحت أصابعها تعبث بشعره الأسود. ما لبث عناقه أن أصبح أكثر قوة وعمقاً، ما جعلها تدرك أنه، وإن كان يعاملها بلطف ورقة، فإن بإمكانه أن يكون متطلباً بل متوحشاً.

رفع مالك رأسه وراح يمسّد خدها قائلاً: «سامحيني، من فضلك».

- نعم، بالطبع.

وتمكنت من إطلاق ابتسامة مرتجفة، ما بعد عملاً بطولياً نظراً لما يعتمل في داخلها من مشاعر قوية.

- ونيكول أيضاً تسامحك.

- إذن، ما زال بإمكاننا أن نتناول الفطور معاً احتفالاً بعيد مولدها، أليس كذلك؟

ابتسمت ابتسامة عريضة تحمل لمحة من الحزن وقالت: «نعم».

تطاولت نيكول لتلمس باقة الأزهار التي تتوسط الطاولة، فمرّرت طرف إصبعها على زهرة قرمزية اللون. ملأت رائحة الورد الدمشقي الموزّع في تلك الباقة المكان بأريج عطر.

- الرجال يفضلون المرأة الهادئة.

رشف مالك رشفة من قهوته وقال: «لا أصدق أنك تقولين مثل هذه الأشياء».

- لقد جعلك ذلك تبتسم على الأقل.

- أنا سعيد فقط لأنك تبتسمين من جديد.

٦ ـ أميرة تائهة

تلاقت نظراتهما وعلقت معاً. رأت نيكول الإخلاص في نظراته الفضية الرقيقة، وشعرت بموجة من السعادة تجتاحها. لم يكادا يقومان بمحادثة قصيرة حتى ظهر الانجذاب واضحاً بينهما، كما بدا جلياً أن كلاً منهما يمتلك شوقاً كبيراً للآخر.

- إذن، ماذا يتضمن برنامج عملك لهذا اليوم؟

سألها مالك ذلك وهو يجلس مستقيماً إلى الوراء، فيما راحت إحدى الخادمات تضع على الطاولة صحناً مليئاً بقطع من الفواكه المتنوعة والطازجة.. مانغا، بابايا، كيوي ورمان. بدت ألوان الفاكهة مشرقة، لامعة، ورطبة، كأنها مجوهرات بلّلها المطر.

- إنه مليء تماماً.

ابتسم مالك، ثم قال: «هل تحتاجين إلى فترة استراحة؟».

تظاهرت بالصدمة: «أتعني دون كتب؟ أو نشاطات؟ أو فروض؟ وما الذي سأفعله عندئذٍ؟».

- أفترض أنك سوف تتمتعين برفقتي، إذا كان هذا الأمر ممكناً.

وتناول قطعة من الكيوي ليضعها في فمه، ثم راح يمضغها ببطء، أما نيكول فراحت تراقب فمه الصارم يلتهم الثمرة الغضة، وأدركت أنها تتنفس بصعوبة. قضاء النهار بمفردها مع مالك ليس فكرة جيدة للاسترخاء، فهي لا تشعر بالارتياح ما دام هو في الجوار.

- أعرف أن لديك العديد من الالتزامات الرسمية..

- لكنك تأتين في المرتبة الأولى بالنسبة إلي، فأنت ستصبحين مليكتي، وزوجتي، وحبيبتي.

اندفعت الحرارة إلى خدي نيكول. حبيبته! أعجبتها رنة هذه الكلمة، وشعرت بنظرات عينيه تدغدغها، تكتسح خدّيها، ثم تنتقل إلى فمها، فعنقها، فأعلى صدرها.. فسارعت تقول: «نعم. حسناً.. لديك، بالطبع، الكثير من الواجبات. لكن إذا كان لديك الآن بالتحديد، مشاغل أكثر أهمية..».

تلاشت الابتسامة من عينيه وقال: أكون عديم الإحساس إن لم تكوني أنت أهم مشاغلي، فأنا أراك حزينة، كما أنك تبدين اليوم مستوحشة. أظن أنك تحتاجين إلى الصحبة، ويمكنك الاعتماد عليّ في ذلك».

تعتمد على صحبته.. آه، أحقاً؟ لكن ذلك ليس جزءاً من خطتها. فخطتها لا تشمل إقامة علاقة جدية معه.. أو الوقوع في حبه.. أو التعلّق بهذه البلاد البعيدة عن موطنها.

انحنى مالك إلى الأمام، ثم لامس شفتيها بإبهامه، قائلاً: «اليوم، أنت تحتاجين إلى مغامرة... إلى شيء جديد، شيء مسلٍ. لذا دعي الأمر لي».

شعرت بالحرارة تغزو جسمها، فأغمضت عينيها، فيما راحت أصابعه تلامس خدها، لتنزلق بعدئذٍ إلى عنقها.

قال مالك وهو يمسد عنقها بإبهامه: «لماذا تتجنبين النظر مباشرة إلى عيني؟ عندما أتحدث إليك، كما أفعل الآن، تنظرين دوماً إلى الناحية الأخرى».

أجابت هامسة: «لأنك تلمسني».

وكان ردّها صادقاً، فهي لا تستطيع النظر إلى عينيه. إنه يحرّك مشاعرها وأحاسيسها، ما يجعلها غير قادرة على التركيز.

- ليس عليك أن تخشي ملامستي لك. فأنت امرأة ذات خبرة ولست فتاة عذراء.

ابتلعت نيكول ريقها، وشعرت بالحرارة تغزو جسدها، رفعت بصرها لتلتقي بنظراته الفضية المتفحصة، وقالت: «ما يخيفني ليس قلة الخبرة، بل.. أنت».

قال مالك بنبرة متشككة: «أتخافين مني؟ لكن، لمَ؟ فأنا أفديك بحياتي».

أجفلت نيكول بسبب الألم الذي اعتصر قلبها لسماع كلماته هذه، فهي لم تشعر بمثل هذه العاطفة الصادقة منذ سنوات. ثم قالت: «ربما، هذا ما أخافه. أنت شديد الثقة بي، مع أنك لا تعرفني جيداً لكي تفديني بحياتك».

فجأة، انتقلت راحة كفّه لتلامس خدها، فيما هو يقول: «أنت خطيبتي!».

- نحن لم نتبادل العهود بعد، ولم نعلن خطوبتنا رسمياً.

بدا التفكير على تعابير وجهه، فيما هو يتراجع ليجلس على كرسيه من جديد: «هل تفكرين بالمغادرة؟».

- كلا!

- لكن، ما زالت لديك شكوك، أليس كذلك؟

شعرت بالانزعاج من هذا الحديث. الآن، بعد أن التقت به، وعرفته عن قرب، لم تعد ترغب بأن تسبب له خيبة أمل.

- لقد ولدت متشككة. فبيتنا، نحن الأميرات الثلاثة، أنا ذات الطباع الأكثر..

وقطعت حديثها فجأة، مدركة أنها تتكلم مرة أخرى بطريقة نيكوليت.

قال مالك يحثها بنعومة: «الأكثر... ماذا؟».

- لا أظنك ترغب بمعرفة ذلك.

- بل أنا كذلك.

هزّت كتفيها، كأنها تقول له لقد حذّرتك، ثم قالت: «الأكثر حدة».

أطلق مالك سعالاً خفيفاً. فلوت نيكول أصابعها، وتجمع التوتر في داخلها وعادت تقول: «أنا آسفة. عرفت أن الأمر سوف يزعجك».

بدا مالك غاية في الهدوء والارتياح، وقال: «ما الذي يمكننا القيام به؟ كيف يمكنني أن أساعدك؟ هل هناك ما يمكنني القيام به؟».

أغمضت نيكول عينيها، فشعرت بأشعة شمس الصباح تدفىء قمة رأسها وتنشر

حرارتها فوق كتفيها. ولم تعد تعرف ماذا عليها أن تفعل، وقد أدركت أنها فقدت السيطرة على مسار الحديث بينهما.

ابتلعت نيكول ريقها وفتحت عينيها وهي تشعر بجفاف في حلقها، فتناولت كوب العصير ورشفت منه رشفة، ثم قالت: «أنا لا أريد أن.. أسبب لك الإحراج».

- أنا مسرور لذلك، فأنا أكره المواقف المحرجة.

إلاّ أن زاوية فمه ارتفعت قليلاً، فبدا لها أنه محتال بكل ما للكلمة من معنى. لم تصدق نيكول أن بإمكانه أن يمزح في مثل هذا الموقف. ومع ذلك، ابتسمت تجاوباً مع مزاحه هذا. إلاّ أنها شعرت باضطراب في مشاعرها. وتابع مالك يقول دون تردد: «أنت لن تسببي لي أي إحراج، فأنا أعرفك. أنت مثلي تماماً؛ تدركين معنى الواجب والمسؤولية، وتحبين بلدك وشعبك وأسرتك. وسوف تقومين بما هو أفضل من أجلهم جميعاً».

كان يتكلم بجدية وكأنه يقرر أمراً واقعاً، ووجدت نيكول نفسها مشدودة إلى كل كلمة من كلماته، كأنها لا تطيق انتظاراً لسماع الجملة التالية. وإذا به يضيف قائلاً: «إذا أعطيتني كلمتك الآن، يمكنني أن أؤكد أن الزواج سوف يتم. فأنت لن تتراجعي عن كلمتك في الدقيقة الأخيرة، لأن ذلك سيسبب الإحراج لأسرتينا، ولبلدينا».

لم تتفوه نيكول بأي كلمة. وبدا لها أن الحياة تجمدت من حولها.

وأضاف مالك بنبرة ملؤها التهذيب: «أنت حرة... حرة في العودة إلى منزلك الآن. فأنا لن أبقيك هنا على الرغم من إرادتك».

وفكرت نيكول، إنه حتى لا يعرف من تكون، ما الذي سيحدث لو أنها تتزوجه مدعية أنها شانتال؟ ماذا سيحصل عندما سيكتشف الحقيقة لاحقاً؟ أتراه سيرضى بالأمر الواقع، فيعتبر أن الأميرات دوكاس متشابهات، ولا فرق بين واحدة وأخرى؟ أم أنه سيطالب بشانتال، الأميرة الطيبة، المطيعة، ثم يعود فيطلقها بحجة تعرّضه للخداع؟ أو الخيبة؟

وجاء صوتها خشناً حين قالت: «لست ذاهبة إلى أي مكان. سوف أبقى هنا».

ثم نظرت إليه آملة ألاّ يلاحظ الدموع في عينيها، وتابعت تقول: «أنا اليوم في إجازة، ألا تذكر ذلك؟ وأنت وعدتني بأن تريني شيئاً جديداً.. شيئاً مسلياً».

- نعم، أذكر.

بعد إنهاء وجبة الطعام، بدّلت نيكول حذاءها بسرعة، ووضعت كريماً واقياً على وجهها، وما لبثت أن عادت إلى الباحة الأمامية. شعرت بثقل في قلبها ما إن رأت فاطمة في انتظارها. نظرت إليها فاطمة قائلة بنبرة متصلبة: «إنها ليست فكرتي!».

شعرت نيكول بخيبة الأمل، وبالكاد صدرت عنها إيماءة. وفي تلك اللحظة، وصلت السيارة والسائق، كما وصل مالك. وكان هذا الأخير قد استبدل ملابسه بعباءة طويلة، وكذلك فعلت فاطمة، وكلا العباءتين مصنوعتين من قماش فاخر، وقد طرزتا يدوياً برسومات بديعة.

سألت نيكول وهي تشير إلى سترتها الفيروزية اللون: «هل أحتاج إلى تغيير ملابسي؟».

أجابها مالك وهو يحيط كتفيها بذراعه: «لدي عباءة يمكنك ارتداؤها إذا أحببتِ، لكني لا أرى حاجة كي تبدّلي ملابسك. سوف ترين أن معظم الجيل الجديد عندنا يفضلون ارتداء الجينز والقميص القطني القصير الكمين. كما أنك سوف تجدين وسط المدينة ذا طابع غربي، فهو متأثر بالإستعمار الفرنسي السابق ويتدفق السيّاح خلال فصل الشتاء».

سألته وهي تستقر في المقعد الخلفي للسيارة: «وهل سنذهب إلى هناك؟».

وفجأة راح مالك يتحدث باللغة العربية إلى قريبته التي استقرت لتوها إلى جانب نيكول، فتحركت بتثاقل، لتنتقل إلى المقعد المقابل. فيما أخذ مالك مكانه إلى جانب خطيبته. ثم مد ذراعه على ظهر المقعد، فلامست رؤوس أصابعه كتفها، عندئذٍ همست نيكول في أذنه مستفسرة: «وهل هذا مسموح به؟».

أخفض بصره نحوها مجيباً: «نحن في سيارتي».

- أعرف، لكن قريبتك..

- .. تعرف بأنك ستُصبحين زوجتي.

ثم أمسك بيدها ورفعها إلى فمه مقبلاً ظاهرها، قبل أن يقول: «والآن، استرخي! أريدك أن تُمتعي نفسك. وأمنعك من الشعور بالقلق».

- حول أي مسألة كانت؟

- بالتأكيد، حتى لو كانت ليلي. لا تقلقي، فكل الأمور تحت السيطرة.

شيء ما في نبرة صوته أوقف شعر بدنها، إلا أنها لم تجرؤ على السؤال. طلب منها ألا تقلق بشأن أي مسألة كانت. وهذا ما ستحاول القيام به خلال الساعة القادمة، أتراها تستطيع ذلك؟

تحركت الليموزين بهم، وسط حراسة مجموعة صغيرة من المرافقين الشخصيين، وبعد أن قطعت عدداً من الشوارع، غدت الطرقات أكثر ضيقاً. وبعد عدد من الالتفافات وصلوا إلى السوق الرئيسي للمدينة. كان السوق يعج بالباعة والباعة المتجولين، فغدا لوحة تضج بالألوان. كانت المنصات مليئة بكل ما يمكن تخيله من الأصناف والبضائع؛ سلال مملوءة بالفواكه والمكسرات، أوانٍ نحاسية، أثواب من القماش، مصنوعات جلدية...

أوقف السائق السيارة، وسرعان ما طوقت السيارات المرافقة لهم الليموزين. ترجّل مالك من السيارة، ثم مد يده ليساعد نيكول ثم فاطمة على النزول. ما إن وقفت نيكول على الأرض حتى لاحظت أن معظم النساء اللواتي يرحن ويجئن في السوق مرتديات عباءات طويلة ملونة. فسألته مشيرة إلى العباءة التي يرتديها: «هل ما زالت العباءة معك؟ أظن أننا، أنا وفاطمة، لن نثير الانتباه إذا كانت ثيابنا متشابهة».

ساعدتها فاطمة على ارتداء العباءة فوق بذلتها المؤلفة من سترة وبنطلون. وما إن انتهت من ارتدائها، سألها مالك: «هل ترغبين بإلقاء نظرة على المكان».

بدت نيكول مستعدة لرؤية أكثر ما تستطيع رؤيته من المدينة، فمنذ مجيئها وهي تتمنى أن تزور وسط المدينة. وأجابته: «نعم».

- سوف ترافقك فاطمة. كنت أود مرافقتك، لكنني أفضّل البقاء هنا كي لا نضطر إلى إتخاذ إجراءات أمنية مشددة.

تفهمت نيكول ذلك، لا سيّما أن السوق يبدو مزدحماً. ومن الصعب أن تتمكن مجموعة من الناس من عبوره، فكيف بالسلطان ومرافقيه وحراسه.

كانت الشمس في كبد السماء عندما انطلقت في جولتها برفقة فاطمة. هبّت ريح ساخنة حملت معها الغبار عالياً ليحط على مظلات البائعين، التي راح قماشها يرفرف كالأجنحة. كما راحت سعف أشجار النخيل الكثيفة الخضراء تميل يميناً ويساراً.

بدت نيكول مأخوذة بالمشهد الغريب الرائع؛ المحلات المطلية باللونين الأزرق والأبيض، أوعية الفخار الضخمة التي تحتوي على زيتون أخضر وأسود، السلال المليئة بالتمور والمشمش المجفف، روائح البهارات المنتشرة في كل مكان. وفي خلفية المشهد بأكمله، كانت الريح الحارة تهز سعف النخيل فتصدر صوت وشوشة، تضفي على المكان سحراً خاصاً.

وفكرت نيكول: يا للروعة! وراحت تملأ عينيها ورئتيها مما حولها.

راحت تتبع فاطمة وهي تسير حول السوق المزدحم المربع الشكل، حيث الأبنية القديمة التي تحيط بها مئات المحلات، وكل منها يبيع أصنافاً مختلفة. وشيئاً فشيئاً، نسيت نيكول عدائية فاطمة نحوها، وغرقت في متعة التجول في مكان جديد وغريب تماماً عنها.

كانت أشعة الشمس القوية تكوي رأسها وتخترق عباءتها الداكنة اللون. وفكرت أن الوقت حان للرحيل. نظرت حولها آملة أن تلتقي عيناها بعيني فاطمة. لكنها أدركت أنها أضاعت فاطمة في مكان ما في الطريق. فاجأها ذلك، لكنها لم تشعر بالقلق. بل شعرت في الواقع.. بالارتياح.

فلطالما اعتادت أن تسافر إلى العديد من الدول الأجنبية، ولم تشعر يوماً بالخوف لأنها بعيدة عن موطنها. وهكذا، لم تشغل ذهنها بأية أفكار مقلقة، بل شعرت للحظة من اللحظات بأنها حرّة تماماً...

تمنت لو أنها تملك مالاً في جيبها، لتبحث عن مقهى وتتناول قهوة مثلجة، وهكذا تتمكن من الجلوس في الظل ومراقبة الناس بارتياح. لقد أحبت نيكول مدينة أتيك ووجدتها مذهلة. فهي ما زالت تعكس التاريخ الأصلي للبلاد، بشوارعها المرصوفة بالحصى وأبنيتها المطلية باللون الأبيض وشمسها التي تبهر الأبصار.

استدارت عند زاوية أحد المباني لتعود أدراجها، إلا أنها وجدت نفسها في طريق ضيّق. نظرت نيكول حولها، وقد أدركت أنها ليست في الاتجاه الصحيح. أين تراها فقدت الاتجاه السليم؟ لم يبدُ لها ما حولها مألوفاً، لكن في الواقع، زحمة السوق والباعة والمتجولين قد تجعل أياً كان يُضل طريقه. وقفت عند الزاوية وهي تضع يديها على وركيها. ولاحظت أنها باتت تسترعي انتباه المارة، من الواضح أنها تبدو غريبة عن البلاد، حتى لو كانت ترتدي الزي المحلّي. فمظهرها يبدو مختلفاً.

بدأت الشمس بالانحدار، إلاّ أن الحرارة ما زالت مرتفعة، ولم يبق في السوق إلا قلة من الناس. ضربت بيدها ذبابة راحت تحوم أمام وجهها، ثم تنهدت. يجب ألاّ تصاب بالذعر، فهي لم تبتعد كثيراً. إذ لم يمضِ سوى عشرون أو ثلاثون دقيقة على الأكثر، منذ أضاعت فاطمة. مرّرت ظاهر ذراعها فوق جبينها لتتخلّص من العرق. وفكرت: من أي طريق أتيتِ؟ أين كانت الشمس حينها؟ وتذكرت أن المحلات التجارية في بَرَكة، هي كالجوامع تماماً مواجهة لجهة الشرق. كل ما عليها أن تفعله هو أن تتوجه إلى الشرق، وهكذا سوف تجد طريقها.

كان مالك ينتظر إلى جانب السيارة عندما عادت فاطمة وحدها. سألته وهي تنحني لتحدّق إلى داخل السيارة من خلال الزجاج المعتم: «هل الأميرة هنا؟».

شعر مالك بأن قلبه توقف عن الخفقان، وتصلبت عضلاته فغدت كالحجارة، وأجاب: «من المفترض أنها برفقتك».

نظرت إليه فاطمة بعينين واسعتين بريئتين: «كنّا نسير معاً، ونحن نستعرض السلع المعروضة في السوق...».

- أنت أضعتها!

قال ذلك بصوت هادر، فهزّت فاطمة رأسها قائلة: «كلا، لم أفعل. كنت أظنها تسير بقرب.. كنت متأكدة أنها تتبعني».

فرقع بأصابعه وإذا بسائقه يظهر على الفور، وراح يتكلم بسرعة وإلحاح: «الأميرة مفقودة، استدع ضباط الأمن ليبدأوا بالبحث عنها. خلال هذا الوقت، سوف أتصل بالقصر لطلب المزيد من قوات الشرطة».

انحنى السائق ثم ابتعد مسرعاً. فيما راحت فاطمة تراقب مالك وهو يتصل بالقصر من هاتفه الخليوي، فملأ عينيها. وقالت له: «لم أتعمد ذلك، يا قريبي. صدقني، حصل الأمر دون قصد مني».

إلاّ أن الملك لم يتمكن من النظر إليها، بل قال لها بصوت عميق ذي نبرة ملؤها المرارة: «لقد وثقت بك. لكنك خذلتني».

صعدت فاطمة إلى سيارة الليموزين، ودفنت وجهها بين يديها. أما مالك فراح يذرع الأرض بجانب السيارة بانتظار عودة سائقه، وبعد قليل قرر الذهاب للبحث عن نيكوليت بنفسه. وفجأة ظهرت الأميرة أمامه متوهجة الوجه، متعبة، وقد أنهكتها حرارة الجو. إلاّ أن السرور بدا واضحاً على ملامحها، لأنها تمكنت من إيجاد طريقها والعودة إليه.

ابتسمت نيكول وقد بدا الارتياح على وجهها وقالت: «أما زلت هنا؟ الحمد لله!».

- لن أتركك أبداً.

وتفحصتها عيناه بدقة كي يتأكد من سلامتها ثم قال: «هل أنت بخير؟».

- أنا بخير، لكنني أشعر ببعض الارتباك. لا أعرف كيف فقدت أثر فاطمة.

وتوقفت قليلاً عن الكلام لتنظر حولها متسائلة: «هل عادت إلى هنا؟».

أظلمت ملامح مالك وقال: «إنها في السيارة».

هزّت نيكول رأسها غير مصدقة: «جيد! خشيت أن تبقى في السوق للبحث عني، ولم أشأ أن أعرضها لأي خطر، فالحرارة مرتفعة جداً».

وافقها مالك وهو يشاهد سائقه متوجهاً نحوهما برفقة ضباط الأمن. فقال لها،

وهو يشير إليهم: «دعيني أهتم بهذا الأمر أولاً، ثم نتوجه عائدين إلى القصر».

عند عودتهم إلى القصر، توجهت نيكول إلى جناحها الخاص لتجد علياء في انتظارها بذراعين مفتوحتين. وما إن رأتها هذه الأخيرة حتى هتفت وهي تمسك بذراعها كأنها لا تصدق أنها تراها سالمة: «هل أنت بخير، يا سمو الأميرة؟».

بدت تصرفات علياء كوميدية بسبب قلقها عليها. فغضنت نيكول جبينها وهي تقول: «أنا بخير تماماً. لقد تهت في وسط المدينة، وكان الجو شديد الحرارة. لكنني وجدت طريق العودة، والآن، كل شيء على ما يرام».

فقالت لها علياء مؤكدة: «حسناً، سوف نهتم بك بصورة جيدة. يلزمك أولاً حمام سريع لتبردي وتغتسلي من الغبار، يليه مغطس دافىء بالمياه المعطرة، ثم جلسة تدليك تساعدك على الاسترخاء، فكل عضلة من...».

- هذا ليس ضرورياً، علياء. كل ما أحتاج إليه هو أخذ حمام بارد.

إلاّ أن علياء لم تكن تصغي إليها، إذ إنها توجهت على الفور إلى الحمام الفاخر الملحق بجناح نيكوليت، وراحت تناديها بعد أن فتحت رشاش المياه: «هيا بنا لنبدأ الحمام!».

أمضت نيكوليت وقتاً طويلاً في الحمام، تاركة المياه الدافئة تنساب فوق رأسها. لم تعد تذكر متى شعرت بمثل هذا الاسترخاء للمرة الأخيرة. إنها تشعر بالارتياح للغاية، حتى إنها لم تفكر بأي سبب يدعوها إلى القلق.. بأي شأن من الشؤون. وبعد أن أنهت حمامها ونشفت جسمها، سمحت لعلياء بأن تفرك لها جسمها بالكريم المرطب المعطر.

بعد أن جففت لها علياء شعرها، ارتدت نيكول رداء نظيفاً. إنه واحد من تلك الأثواب الحريرية الرائعة المطرّزة باللونين الأخضر والذهبي. ثم توجهت إلى غرفة الجلوس حيث ينتظرها الشاي الساخن المعطر بالنعناع بالإضافة إلى أقراص الحلوى.

لكن، لم يكن الشاي وحده في انتظارها هناك، بل الملك نور أيضاً.

وقفت نيكول جامدة على الباب ما إن رأته. وسرعان ما وضعت يدها على

صدرها لتتأكد من أن رداءها لا يكشف عن الكثير من بشرتها، ثم قالت: «جلالتك هنا؟».

- فكرت بأن أنضم إليك لتناول الشاي.

بدا تأثير مالك عليها كبيراً، فهي لم تشعر من قبل بذاتها كما هي الآن. ولم يكن لأي رجل من قبل مثل هذا التأثير عليها. شعرت بتقلّص في معدتها، إلاّ أنها قالت: «إنه قصرك».

ارتفع حاجبه وهو يقول: «هذا لا يشبه مطلقاً القول: نعم، أنا سعيدة لرؤيتك. أليس كذلك؟».

عضت نيكول باطن شفتها، مدركة أنها لا ترتدي سوى ثوباً حريرياً رقيقاً، فوق جسمها الدافىء، وقالت: «بالطبع، يسرني أن تكون لديّ رفقة».

وأذهلها ما تشعر به من هياج في أعصابها. لا يجدر بها أن تتجاوب على هذا النحو لمجرد رؤيته... على الأقل، عليها ألاّ تندفع وراء ما تشعر به من أحاسيس نحوه. وسألها مالك محاولاً إغاظتها: «أتعنين أي رفقة، أم رفقتي بالذات؟».

كان مضطجعاً على الأريكة، تحيط به الوسائد الوثيرة، وقد بدا صدره من خلال ثوبه المفتوح عند العنق، وامتدت ساقاه القويتان على طول الأريكة. جالت ببصرها عليه، إنه بالغ الوسامة، ولا بد أنه يعرف ذلك. أجابته بنعومة: «أنت تعلم أن رفقتك تسرني».

- ولماذا..؟

اضطرت نيكول إلى عض باطن خدها لتمنع نفسها من الضحك، وقالت: «هل خطر ببالك يوماً أنك ما تزال أعزب لأنك مغرور ومتغطرس؟».

ابتسم قائلاً: «أنا لست مغروراً».

- لكنك متغطرس.

- عزيزتي، لا يمكنني أن أكون سلطاناً حقيقياً إن لم أتحلَّ ببعض الثقة بالنفس.

بدت ابتسامة مالك بطيئة، خطيرة وهو يتحرك لينهض عن الأريكة، ثم يسير في اتجاه الجدار حيث وضعت منضدة تحمل لوحة مفاتيح. وما إن لمس بعض الأزرار

حتى صدحت الموسيقى في الغرفة عبر مكبرات صوت خفية.

- ذلك المساء قلت إنك ترغبين بالرقص.

لم تستطع نيكول سلخ نظراتها عن تلك الابتسامة الصغيرة التي تعلو شفتيه.

اندفع الأدرينالين في شرايينها وهو يتحرك باتجاهها، ولم تعد تستطيع الكلام.

وقف أمامها مباشرة، يداه مسترخيتان إلى جانبيه، وعضلات صدره القوية تبدو بارزة من فتحة ثوبه، وقال: «تعالي».

بدت ذراعاه قويتين، مسترخيتين. وبدا كأنه يملك الليل بطوله ويمكنه أن ينتظرها إلى ما لا نهاية. وقال محدثاً: «فكرت أنك ستحبين هذه الأغنية».

وهو كذلك! فهذه الفرقة هي المفضلة لديها، وقد التقت بأفرادها أثناء جولتهم الأخيرة في أوروبا. وقالت: «أنا أحبها».

- تعالي إذن!

لم تدر لما لم تتمكن من التقدم نحوه. لكن رجليها رفضتا التحرك، وكأن قدميها مثبتتان في الأرض. وتملكتها الرهبة ما إن تذكرت أنها تدّعي شخصية مختلفة عن شخصيتها الحقيقية. فهمست: «تعال أنت إليّ».

قالت ذلك آملة ألاّ يفعل، بل يستدير عائداً أدراجه. لكن مالك راح يضحك، ذلك أن ثقته البالغة بنفسه جعلت غطرستها مسلية في نظره. وإذا به يقرب المسافة بينهما، ثم يشدها إليه ليتلاءم جسدها مع جسده، فيما التمعت نظراته الفضية بالمرح وهو يسألها: «أهكذا، يا أميرتي؟».

شعرت نيكول بالارتعاش بسبب ملامسة جسديهما. ولا بد أنه شعر بارتعاشها فضمها إليه أكثر. أحسّت بضعف في ساقيها ودفنت وجهها في صدره، فيما راحت الموسيقى تصدح حولهما. شعرت بدفء جسده، وحيويته، وصلابته. ووجدت نفسها تغرق في صدره أكثر فأكثر فيما ذراعه تشدها إليه بقوة. إنه يعرف كيف يجعل المرأة تشعر بأنوثتها. وعندما استقرت يده عند خصرها، فكرّت نيكول أن باستطاعتها البقاء على هذه الوضعية إلى الأبد.. متنشقة عطره، شاعرة بدفء جسده وسهولة قربه منها. لم تكن تشعر بالغرابة ولا الارتباك على

الإطلاق، إذ لا تكلف ولا أساليب ملكية رسمية بينهما. وإنما فقط، مالك ونيكول!

أحسّت بوخزة من الشعور بالذنب. اجعلي الأمر كأنه مالك وشانتال! إلاّ أنها لم تشأ أن تظل شانتال بعد اليوم، بل تريد أن تكون هي نفسها معه.. تريده أن يرغب بنيكول.

- أتفكرين بليلي؟

سألها مالك ذلك قاطعاً حبل أفكارها، فيما تحركت يده برقة فوق ظهرها، مرسلة ارتعاشات خفيفة في مختلف أنحاء جسدها. هزّت نيكول رأسها وتنهّدت بعمق وهي تشعر بالذنب. وتساءلت، ما الذي تفعله هنا؟ ما الذي يحصل بينهما؟ إذا ما استمرا على هذا النحو فسوف ينتهي بهما الأمر إلى كارثة. شعرت بأنها تختنق، فتراجعت إلى الوراء، واضعة مسافة بينهما كي تتمكن من التفكير بوضوح، وقالت: «هل لنا أن نجلس؟».

- بالتأكيد.

اتخذ مالك لنفسه مقعداً. وأدركت نيكول أنه يتوقع منها أن تنضم إليه، لكنها تردّدت. لن تشعر بالأمان إذا ما جلست بقربه وهي ترتدي هذا الثوب الحريري الرقيق، ذلك أن أي لمسة منه ستجعلها تذوب بين يديه.

- ربما يجدر بي أن أبدّل ملابسي.

- لماذا؟

- أنت تعلم لماذا.

انتصب رأسه عالياً وراح يتفحصها. ثم قال: «لا تقولي إنك خائفة مني».

في الواقع، إنها كذلك! توهج وجه نيكوليت وقالت: «إذا كان عناقك رائعاً على الدوام قد تكون هناك مشكلة».

- أنت صعبة الإرضاء، أيتها الأميرة.

- نعم. أعرف ذلك.

ضغطت على رأسها بكلتي يديها، علّها تهدىء من شعورها بالذنب. إلاّ أن

ذلك الصوت الصغير لم يكن ليدعها تشعر بالارتياح. وقالت: «أظن أن لدي انفصام في الشخصية».

بذل مالك جهداً كبيراً كي لا تفضحه أسارير وجهه، وقال: «أحقاً؟».

- نعم.

- حدثيني عن شخصياتك تلك.

راحت تسير أمامه ثم قالت بعد أن رمقته بنظرة خاطفة: «هناك شانتال العاقلة، وشانتال المندفعة التي تكن لك الإعجاب».

- وأين المشكلة في ذلك؟

توقفت عن السير، وقالت: «إذا كنت أنا نفسي لا أعرف أيهما شانتال الحقيقية، فكيف يمكنك أنت أن تعرف؟».

أشار إليها كي تجلس، قائلاً: «تعالي إلى هنا، وسوف أخبرك».

إنه يتلاعب بأعصابها. ومع ذلك تحركت نحوه، كأن حبلاً يشدها إليه على الرغم من تعقلها. وما هي إلاّ لحظة حتى جرّها برفق لتجلس إلى جانبه. قرّبها منه ليضمها إليه بذراعه، فشعرت بأصابعه القوية تتحرك فوق كتفيها بلهفة أرسلت ارتعاشة في جسمها. ثم قال: «أنت لي. سواء كنا متزوجين أم لا، سواء كنت مليكة أم صديقة، سمّنا ما شئت. فأنت مخلوقة من أجلي وأنا خلقت من أجلك».

ومرّر أصابعه على خدها وشفتيها برقة. وأدركت نيكول أنه يريد إثارة عواطفها وشوقها إليه أكثر فأكثر، وأنه يفعل ذلك بتمهل. إنه يخطط لاستبقائها لديه، لتصبح زوجة شرعية له. وهي تعلم أن الزواج في بَرَكة يدوم مدى العمر.

قالت له بصوت ضعيف مخنوق: «أنا معجبة بك».

- أعلم.

قال ذلك دون أن يتوقف عن ملامسة خدها مرسلاً في جسدها أحاسيس لا نهاية لها.

- كلا، يا مالك. أنت لا تدرك كم أنا معجبة بك، بل مشتاقة إليك، أنت تظن فقط...

وهمس مالك في أذنها وهو يشدها إليه: «بلى أعرف. أعرف بما تشعرين».

إنها تريده بكل جوارحها، سنوات وسنوات أمضتها بعد دانيال لم تعرف خلالها المشاعر الحقيقية. لم يستطع أي رجل تحريك عواطفها على هذا النحو. إنه قوي الجسم مع أنه لا يحتاج إلى استخدام قوته، كما أنه لا يحتاج إلى التحدث بخشونة أو بنبرة قاسية، لا يحتاج إلى التهديد والوعيد. فالثقة بالنفس هي جزء من كيانه، وهي تجعله يبدو دائماً مرتاحاً وطبيعياً. إنه يقوم بكل ما يستطيعه من أجل شعبه، يذود عنه مهما كلفه الأمر، وهو سوف يحميها أيضاً.

استدار مالك نحوها وضمها بكلتي ذراعيه، ثم قال: «ها قد وقعت في الفخ، لقد أصبحت أسيرتي».

استقرت نظراته على فمها وهو يقول: «سأجعلك تتكلمين».

شعرت بشفتيها ترتعشان تحت وقع نظراته: «لم علينا أن نتكلم على الدوام؟».

- لأنني أريد أن أعرف بماذا تفكرين. فمن الأفضل أن نواجه الواقع بدلاً من الهروب منه.

راح يداعب أذنها بأصابعه، ما جعل من الصعب عليها أن تركز أفكارها، فقالت: «حسناً اسألني ماشئت».

- ما هو الأمر الذي لا يعرفه أحد عنك؟

الأمر الذي لا يعرفه عنها أحد؟ حاولت أن تتجاهل الأحاسيس المدغدغة التي تسيطر عليها، فراحت تحدق إلى السقف المزخرف بأناقة، والموشى بالنقوش ذات اللونين الأزرق الفيروزي والذهبي. ما الذي لا يعرفه الناس عنها؟ ما هو الأمر الذي أخفته عن الجميع طيلة هذه السنوات؟ إنه دانيال، بالتأكيد. المهندس الميكانيكي الذي كان يعمل في القصر والذي وقعت في حبه منذ سنوات.

كان دانيال يعمل في صيانة سيارات السباق، وأرادت نيكول للعلاقة بينهما أن تدوم. فقد كانت ترغب في البقاء بقدر استطاعتها، إلاّ أن علاقتهما كانت محكومة بالفشل منذ بدايتها. ربما استطاع والدها أن يذهب بعيداً عند زواجه بوالدتها، أما هي، فلا سبيل لأن تتابع علاقتها بدانيال تيري على الإطلاق. لا يمكنها أن تعيش

معه، وتتزوجه لكن ذلك لم يمنعها من الوقوع في حبه إلى حد الجنون. ولو أن شانتال لم تتزوج من الأمير أرماند، لربما فكرت بالهرب بعيداً مع دانيال. لكنها لم تستطع القيام بذلك، بعد أن وافقت شانتال على الزواج من رجل لا تحبه، بهدف حماية ميليو والحرص على مستقبلها.

بعد شهر واحد من زفاف شانتال المترف، اتخذت نيكول قرارها بإنهاء علاقتها مع دانيال. وكان ذلك أصعب قرار اتخذته منذ بلوغها. وفي الواقع، لقد غيّرت رأيها مرة فالتقت به خلسة في إحدى السهرات، لكنها أجبرت نفسها في اليوم التالي على الاتصال به لتبلغه أنها سوف تقطع علاقتها به نهائياً. يومها قالت له: «لا ترد على اتصالاتي، ولا تدعني أغيّر رأيي».

وقف دانيال مبهوتاً، ولم ينفوه بكلمة واحدة. أما هي، فشعرت بالدموع تحرق عينيها، والمسافة بينهما تبعد لحظة بلحظة. لا أحد سواه جعلها تشعر بالرضى عن نفسها كما فعل هو. وها هي تفقده.. تهجره.. وأدمى ذلك قلبها. وسارعت تكمل كلامها: «إذا لمحت رقم هاتفي، لا ترد على اتصالي».

قال لها دانيال: «حسناً، إن كان هذا ما تريدينه».

كانت الانفعالات تختنق في داخلها ... وتخنقها. ليته يعطيها سبباً واحداً يجعلها ترمي بالتزاماتها ومسؤولياتها خلف ظهرها! لكنه لم يفعل. فدانيال مواطن من ميليو، عاش فيها طيلة حياته. صحيح أنه تردّد إلى المدرسة في روما، وأمضى فترة دراسته وسط أسرة دولوران الشهيرة. إلاّ أنه عاد بعدها إلى مسقط رأسه، إلى جزيرته الحبيبة، وأحب أهلها. كما أدرك صعوبة العبء الذي يقع على عاتق أميرات أسرة دوكاس، وتفهّم أن الأميرات سيرثن العرش ذات يوم. كان يعلم، منذ البداية، أن علاقتهما لن تقودهما إلى أي مكان، لكنه استسلم إلى رغبات قلبه لفترة قصيرة. ترك الحب يحمله إلى أحضانه إلى حين، وعندما انتهى كل ذلك، تصرّف كرجل شهم، ما أثار إعجاب نيكول؛ لقد تركها تذهب دون أن ينبس بكلمة احتجاج.

حبست نيكول دموعها وهي تحدّق بالسقف المزخرف باللونين الذهبي

والفيروزي. بعد تخليها عن دانيال، دفنت عواطفها عميقاً في داخلها. وهذه هي المرة الأولى التي تعترف لنفسها فيها كم كلفها قرارها هذا. لقد كان حباً حقيقياً.. فرصة حقيقية للسعادة.

وشعرت بنظرات مالك تتفحصها. كان ينتظر جوابها بفارغ الصبر. وأخيراً قالت: «ليس لديّ أسرار، فحياتي معروفة للجميع».

- لكني أرى دموعاً وحزناً. يبدو أنك فقدت شيئاً ولم تتمكني من استعادته.

وافقته في سرّها: إنه قلبي. مع أنها حاولت أن تموه شعورها بالمفاجأة لأنه تمكّن من قراءة أفكارها ووضع يده على جرحها. فقالت: «توفي والداي وأنا في العاشرة من عمري».

- حزنك هذا ليس بسبب والديك..

قرع سريع على الباب أجبره على قطع كلامه. وعلى الفور سمع صوت فتح الباب الخارجي ثم صوت علياء وهي تطلب الإذن بالدخول: «جلالة الملك، اعذرني لمقاطعتك. لكن، هناك ما يستدعي حضورك على الفور».

وقف مالك بسرعة وسألها: «ماذا حصل؟».

- إنها اللايدي فاطمة، يا جلالة الملك. تم استدعاء سيارة الإسعاف من أجلها، فهي مريضة جداً.

انتظرت نيكول عودة مالك، لكنه لم يعد. وبدلاً من ذلك حملت الخادمات عشاء نيكول إلى غرفتها. وفي وقت لاحق، حضرت علياء وهي متجهمة الوجه، لتساعدها كي تتحضر للنوم. لم تتطوع علياء بتقديم أي معلومات عن فاطمة، ولم تقم نيكول بدورها بسؤالها عنها. لكن ما إن غادرت علياء الغرفة حاملة معها صينية العشاء، حتى راحت نيكول تذرع أرض غرفتها ذهاباً وإياباً. شعرت بالقلق على فاطمة على الرغم من موقف هذه الأخيرة منها. كما أنها أسفت على مقاطعتهما، هي ومالك، وهما في أعلى درجات انسجامهما. فهي تود قضاء الوقت مع مالك، أن تشعر برجولته وقوته، لا أن ترتبط بالزواج منه.

جلست نيكول على حافة سريرها، وضمت قبضتيها لتغطي بهما عينيها.

وتخيلته أمامها . . وسيماً، فخوراً، ذكياً، لطيفاً . . يا إلهي كم يبدو لطيفاً! لم يظهر لها منذ وصولها سوى الإلتمام والدفء والرقة، فكيف يمكنها أن تجرح مشاعره، أو تخيب آماله؟

تغضن جبينها وهي تحدّق عبر الغرفة إلى الباب الذي تعلوه قنطرة أنيقة، وفكرت أن هناك الكثير لتقلق بشأنه. ليتها تستطيع الهروب من قلقها لبرهة من الزمن. . . ليتها، فقط، تستطيع البقاء مع مالك، فتشعر بذراعيه تضمانها، وتريح خدها على صدره. ليتها تستطيع أن تغمض عينيها، فلا تفكر بأي شيء سوى تلك اللحظة التي تشاركاها معاً، وهي بقربه، تشعر بدفء جسمه، تشم رائحة عطره، وتسمع خفقات قلبه بالقرب من أذنها.

عضت على أصابعها، شاعرة أنها تفقد سيطرتها على نفسها. لم تشعر في حياتها أنها بحاجة إلى أحدهم كما تشعر الآن بالنسبة لمالك. إنه ملك، ومن الأفضل أن يعرف حقيقة مشاعرها نحوه. إنه يحمل فوق كتفيه مسؤوليات كثيرة، ولا بد أنه يستطيع أن يقدم لها النصح إذا عرف الحقيقة. أو على الأقل، قد يساعدها في نسيان أمره.

إنها تريد أن تكون هي نفسها، نيكوليت، مجرد امرأة محبوبة ومرغوبة من أجل نفسها فقط. .

استسلمت نيكول إلى النوم وهي تنتظر خبراً من مالك. وعند الصباح الباكر استيقظت وهي تشعر بثقل في قلبها أكبر من ذي قبل. عليها أن تذهب من هنا. هذا ما عليها أن تقوم به. إنه وقت العودة إلى المنزل. آن الأوان كي تزيل هذا اللون الداكن عن شعرها، تجيب على رسائلها، تتفقد بريدها الالكتروني، وتبدأ بمواعدة رجال آخرين. .

بعد قليل، جاءت علياء تحمل إليها القهوة مع رسالة من السلطان. فتحت نيكوليت الورقة، لتجد أنه كتب لها ملاحظة صغيرة مفادها أن دروس اللغة الصباحية قد ألغيت بسبب توعك أصاب فاطمة.

٧ ـ صحراء في عينين

جلس مالك على الكرسي بجانب سرير فاطمة، وقد شبك يديه معاً، فيما ظهر العبوس على وجهه. راحت أفكاره تتسارع، وشعر بالتشوش والغضب. ثم قال: «لست أفهم».

أدارت فاطمة رأسها بعيداً عنه وقالت: «لا يمكنني التحدث عن الموضوع».

نهرها بصوت جاف حاد: «عليك أن تفعلي».

هزّ رأسه، وقد بدا عليه التعب والإرهاق بعد أن أمضى الليل ساهراً بالقرب من سريرها، وتابع يقول: «هل حياتك سيئة إلى هذا الحد؟».

غطت فاطمة وجهها بيديها، إذ لم يعد بإمكانها تحمّل ملامته، وقالت: «سامحني».

- دعيني أفهم إذن!

راحت فاطمة تبكي بقوة ما زرع الحزن العميق في قلب مالك. فقال بعد لحظات طويلة: «أرسلت في طلب والدتك. سوف تأتي من نيويورك برفقة أختك».

- لا!

وراحت تمسح وجهها لتجفف دموعها وهي تجاهد كي تتمكن من الجلوس في السرير، ثم عبست ما إن شعرت بالغثيان. في المستشفى أجروا لها غسيلاً للمعدة ومن الواضح أنها ما زالت متوعكة.

- إذا رأتني أمي على هذه الحالة سوف تشعر بالقلق، وتصاب بالحزن.

لم يعرف مالك إن كان عليه أن يهزها بعنف أم يغمرها بعطف، وقال لها:

«وأنا، ألم أشعر بالقلق؟ فاطمة، لقد أشرفت على الموت».

شعرت فاطمة بالارتجاف وقالت: «كانت تلك غلطة فادحة. عرفت ذلك لحظة قيامي بمحاولة الانتحار، ولذلك طلبت المساعدة».

لم يستطع مالك إقفال الموضوع دون معرفة السبب. لا يمكن لشخص أن يبتلع زجاجة دواء بأكملها دون وجود سبب عظيم. فما الذي دفع بفاطمة إلى الهاوية؟

- لكن لماذا؟ فاطمة، كوني صادقة معي. أنا أُصِّر على ذلك.

نظرت إليه قليلاً، ثم أبعدت نظراتها عنه وقد غدت خالية من أي تعبير، ثم قالت: «كان يفترض بك أن تتزوج بي».

تجمّد مالك في مكانه واحتبس الهواء في رئتيه. ماذا؟

حدّق إلى وجهها وهي تحاول تجنب النظر إليه فتمكن من رؤية ألمها. كان وجهها ما يزال شاحباً وفمها ذابلاً وعيناها خاليتان من البريق. شعر بأنها ترتعش من الخوف والغضب والألم والارتباك، وبدا ألمها حقيقياً. قال لها بلطف وهو يحاول إظهار هدوء لا يشعر به في الحقيقة: «اشرحي لي الأمر».

حاولت جاهدة تجنّب النظر إليه، وقالت: «أخبرني والدي أنك ستصبح زوجي، وقال إن عليّ أن أنتظرك».

- لم أسمع بذلك من قبل.

هزّت كتفيها وقد بدا عليها الإرهاق وقالت: «أخبرني والدي أن والدك وافق على زواجنا، لأنه سيُبقي الثروة داخل الأسرة ويسهّل تقسيم الميراث».

- أمن أجل ذلك تناولت جرعة كبيرة من الحبوب المنومة؟

هزّت كتفيها مجدداً وانحنى ظهرها ببطء، ثم قالت: «لم أفهم لما قررت أن تفتش عن عروس لك فيما أنا لا زلت عزباء أنتظرك هنا».

وفجأة فهم مالك ما تمر به، إنه ليس الألم فقط وإنما الخجل أيضاً. في الغرب تعتبر المرأة في مثل سن فاطمة شابة، فهي ما تزال في منتصف العشرينات. لكن في بَرَكة، يعتبر هذا سناً متأخراً لامرأة لم تتزوج بعد. فالرجال لا يصدقون أنها ظلّت عذراء طيلة تلك السنوات. وعذرية العروس أمر في غاية الأهمية في بَرَكة كمهرها

تماماً. أما الاحتفال بالزواج فمهم للتأكيد على عذرية العروس.

جلس مالك على الكرسي بجانب السرير، وأخذ يديها بين يديه. بدت يداها باردتين وأصابتها قشعريرة عند ملامسته لها.

- لم أكن أعلم..

لقد جرح مشاعرها وكبرياءها من غير أن يدرك ذلك. لا عجب أنها تشعر بالغضب والامتعاض من نيكول. شعرت بأنه رفضها واستبدلها بأخرى. لم تستطع فاطمة النظر في عينيه وهي تقول: «ما الذي قلته لأسرتي؟».

- إنك مريضة جداً وعليهم أن يحضروا إلى هنا بسرعة.

أبعدت فاطمة يديها عن يديه بلباقة، تاركة مسافة بينهما، وقالت: «آه، متى سيصلون؟».

- في وقت متأخر من هذا اليوم.

- وهل ستخبر والدتي ما حاولت أن أفعله بنفسي؟

كان مالك قد طرح هذا السؤال على نفسه من قبل. ما الذي يجب أن يفعله في هذه الحالة؟

- كلا، ولكن عليك أن تعرفي بأن تصرفك هذا ليس مقبولاً أبداً. والخيار الذي اتخذته لم يكن خياراً صحيحاً. فأنت محبوبة من الجميع، وحياتك ذات قيمة كبيرة...

قاطعته فاطمة و الدموع تنهمر من عينيها: «أرجوك.. أرجوك كفى. لن أقوم بذلك مجدداً. لن أجرب القيام بأمر مماثل مرة أخرى. لقد شعرت.. بالخجل.. بالكره لما حدث في السوق بالأمس. لم يكن في نيتي التسبب بالأذى للأميرة..».

احتضنها مالك بين ذراعيه؛ إن الألم الذي يصيب أحد أفراد أسرته يؤلمه هو أيضاً.

- الأميرة تمكّنت من العودة بسلام. لا تقلقي أو تلومي نفسك. والآن، عليك

أن ترتاحي وتهتمي بنفسك.

هزّت رأسها ببطء وقد ظهر المزيد من التعب في عينيها وعلى فمها، وقالت: «ربما سأذهب مع أمي إلى نيويورك لقضاء فترة من الزمن. ربما تغيير المكان...».

قبّل مالك جبينها، ثم وقف وهو يقول: «سأقوم بما يلزم من أجل ذلك. لا تقلقي لأي شأن من الشؤون يا فاطمة. فقط، خذي بعض الوقت لترتاحي، وسوف تتحسّن الأمور قريباً».

أوقفه صوتها عند الباب، فاستدار ليواجهها. بدت عيناها كبيرتين في وجهها الشاحب.

- أرجوك، هل يمكنني أن أطلب منك خدمة؟

أومأ مالك، فتابعت تقول: «هل يمكنك اصطحاب الأميرة إلى زفد لبضعة أيام فقط، إلى أن نغادر أنا وأمي البلاد؟ سيكون من الأسهل أن نغادر إلى نيويورك دون أن يساورنا القلق بشأن ما ستقوله أمي للأميرة شانتال. أعرف أن أمي ستصاب بخيبة الأمل لأنني لن...».

توقفت عن الكلام قليلاً، ثم عبست وأخذت نفساً عميقاً، وتابعت تقول: «أمي أيضاً كانت تأمل بأننا، أنا وأنت.. وهي لا تعلم بعد بشأن خطوبتك من الأميرة شانتال».

هزّ رأسه قائلاً: «أتفهم ذلك تماماً. كنت أخطط لاصطحاب الأميرة إلى هناك في الأسبوع القادم، أما الآن فسوف أقدم موعد ذهابنا. هل ستشعرين بالارتياح وأنت تشرحين لوالدتك سبب غيابي؟».

ابتسمت فاطمة بضعف، وقالت: «نعم. شكراً لك يا ابن عمي».

* * *

توقف مالك أمام غرفة نيكوليت ليخبرها بنفسه عن زيارتهما لمنزله الثاني لبضعة أيام. رأت نيكوليت الظلال تحيط بعينيه وشعرت بإرهاقه. فسألته: «كيف حال

فاطمة؟».

- سوف تستعيد عافيتها قريباً. لا أريدك أن تقلقي بشأنها، فأنت لديك ما يكفيك من مشاكل.

- لكن..

- لا!

هذه المرة بدا صوته حاسماً وقوياً، وتابع يقول: «لا أريد مناقشة الموضوع أكثر. دعي علياء توضب حقائبك، وأخبريها أننا ذاهبان إلى زفد».

بعد ساعات قليلة كان مالك ونيكوليت قد تركا خلفهما ضجيج أتيك وازدحامها، ليتنقلا إلى زفد. استقلا سيارة جيب فخمة ذات مقاعد جلدية ونوافذ من الزجاج الأسود. بين مقعدي الراكبين في الخلف، هناك خزانة تحتوي على براد صغير، وستيريو، وجهاز صوت حديث.

جلس مالك صامتاً طوال نصف ساعة وهو يحدق من النافذة. علمت نيكول أنه لم يكن غاضباً منها بل يعاني من أزمة داخلية مع ذاته. لكنها لم تعد تحتمل تركه وهو يجلس بصمت على هذا النحو. لقد تركته ساعة كاملة ليتألم بصمت وأسى، أما الآن فبات عليه أن يتحدث إليها. قالت بصوت يكسر الصمت السائد:

- أرجوك، أخبرني عن فاطمة.

استمر مالك يحدّق إلى الخارج من خلال النافذة.

- سوف تذهب إلى نيويورك لقضاء فترة مع أسرتها هناك. وهي توافقني الرأي أنها بحاجة إلى بعض التغيير..

- وهل ستتركها لوحدها حتى ذلك الحين؟

- لن تكون وحدها. ستصل والدتها وشقيقتها بعد ظهر هذا اليوم من الولايات المتحدة.

استوعبت نيكول الموقف وأدركت فجأة أنه تعمد أن يبعدها إلى زفد كي لا تلتقي بوالدة فاطمة.

- أنت لا تريدني أن ألتقي بزوجة عمك. أليس كذلك؟

أدار وجهه، ليلتقي بنظراتها وقال: «كانت زوجة عمي تتمنى أن أتزوج بفاطمة، وفكرّت فاطمة بذكاء أن تتقذك وتنقذ نفسها من الحرج».

إذن، هذا يبرر موقف فاطمة العدائي تجاهها. أخرجت نيكول أنفاسها بهدوء. وراحت تفكر بالأسابيع الماضية والوقت الذي أجبرنا فيه، هي وفاطمة، على البقاء معاً. لا بد أن فاطمة شعرت بالإهانة وبجرح مشاعرها. وقالت: «لم أكن أعلم ذلك».

أطلق مالك صوتاً يدل على الغضب ونفاد الصبر: «أنا أيضاً لم أكن على علم بالأمر».

- أنا آسفة مالك. أنا حقاً آسفة.

- وأنا كذلك.

وتساءلت نيكول في سرّها إن كانت سببت بمجيئها إلى هنا أشياء أسوأ بعد من مجرد ادعائها لعب دور شانتال. ربما تسببت بتدمير مستقبل بعض الأشخاص أو حياتهم.

- هل كان هناك سبب يمنعكما من الزواج؟

حرّك مالك كتفيه القويتين وراح ينظر إلى نيكول نظرات ذات مغزى، ثم قال بصراحة: «أنا لم أخترها كعروس لي».

شعرت نيكول بالذعر؛ فاطمة أغرمت بمالك وأملت أن يشاركها حياتها، أما هي، فكل ما تحاول القيام به هو لعب دور مؤقت في حياته لا يدوم إلا لفترة من الزمن، ثم تعود هاربة إلى ميليو. كيف سيؤثر اختفاؤها على مالك؟ كيف سيكون تأثيره على فاطمة وعلى أسرة نور بأكملها؟

شعر مالك بالذعر الذي أصاب نيكول، فحاول طمأنتها قائلاً: «ستكون بخير. لا تلومي نفسك، فأنا الذي اخترتك، وأنت لم يكن لك أي دور في هذه المشكلة».

لم تشعر نيكول بالرضى لأنه يتظاهر بالابتسام من أجلها. بحثت عينيها عن عينيه، وسألته: «هل ستكون بخير؟».

انحنى إلى الأمام وقبّل جبينها قائلاً: «أنا سعيد لأنك معي، عزيزتي».

- وأنا سعيدة لوجودي هنا أيضاً.

أمضيا ساعتين في رحلة عبر الجبال الحمراء والزهرية اللون. يصعدان إلى قمة الجبل، ليعودا فيهبطا من الجهة الأخرى، ثم يصعدان جبلاً آخر. . وهكذا دواليك إلى أن وصلا في وقت متأخر من بعد الظهر إلى وادٍ فسيح يتخلل أرضه القاحلة عدد من الواحات الصغيرة الخضراء.

اقترب بهما السائق إلى قلعة مبنية من الحجارة الرملية الحمراء، ذات جدران صلبة مرتفعة، وشرفات تعلو بشموخ نحو السماء الزرقاء الصافية. بدت القلعة أعلى بكثير من بقية أجزاء المدينة، ومع ذلك بدت كالقزم أمام الجبال الشاهقة المكللة بالثلوج خلفها.

راحت نظرات نيكول الفضولية تتأمل مناظر تلك الجبال المكسوة بالبياض، والأبنية المشيّدة فوقها، متمتعة بالجو المشمس الرائع. وسألته: «أين نحن الآن؟».

- هذه زفد. إحدى أقدم المدن في بَرَكة. من هنا تنحدر أسرة والدي.

ما إن اجتاز الجيب أسوار المدينة حتى خرج العشرات من الرجال والنساء والأطفال إلى الشوارع ليشاهدوا السلطان بلهفة.

- هل كانوا يعلمون بقدومك؟

بدت تعابير مالك ميالة إلى السخرية حين قال: «لا بد أن أحدهم أخبرهم بقدومنا».

ركن السائق الجيب، وقبل أن يفتح الباب لهما، ظهر حرّاس القلعة ليشكلوا حاجزاً دفاعياً بين السلطان والحشود. نزل مالك من الجيب وساعد نيكول على النزول. ما إن رأى الناس الملك حتى ظهر عليهم الابتهاج وراحوا يهتفون بحياته، فرفع مالك يده بالتحية لهم. وفوجيء حين رأى نيكوليت تتوجه نحو الحشود لتلقي التحية عليهم ومع أنها لم تكن تعرف سوى القليل من الكلمات العربية، إلاّ أن الجُمل القليلة التي قالتها جعلت الجميع يفتنون بها.

حافظ مالك على رباطة جأشه وتمالك أحاسيسه، وتحرّك إلى الأمام آخذاً معه

www.elromancia.com

نيكول إلى منزله الصحراوي. قال وهو يريها المنزل: «نحن ندعو هذا المنزل «الحصن» وعلى الرغم من أن الأسرة المالكة سكنته منذ مئتي سنة، وهي ما تزال تتردّد إليه من وقت إلى آخر، إلاّ أنه ما زال يقوم بدوره كحصن عسكري هام، وهو أحد أقوى مواقعنا الدفاعية».

فتح مالك باباً يؤدي إلى حديقة كبيرة يحيط بها سور مرتفع. بدت الحديقة مليئة بأشجار معمّرة ضخمة، ذات أغصان غضّة عالية تتشابك مع بعضها البعض، فتبدو كأنها تنانين تحارب بعضها. جلسا على مقعد في ظل إحدى الشجرات، وأحضر لهما على الفور كوبان من شراب النعناع المثلج المحلّى. غدت تعابير مالك تأملية، وراح يطرق بأصابعه على الطاولة برفق.

- يفاجئني أنك لم تتزوج من قبل.

- لم يكن الأمر ملحاً قبل اليوم.

- وهل أصبح كذلك الآن؟

فتح فمه كأنه على وشك التكلم، لكنه بدلاً من ذلك، أقفله من جديد، واكتفى بهز رأسه.

في الواقع، لم يشعر مالك بالقلق يوماً بشأن مسألة الزواج والإنجاب، فقد كان واثقاً من أنها مسألة وقت فقط. وعاجلاً أم آجلاً، سوف يلتقي بالمرأة المناسبة. ولكن ذلك لم يحصل. وها هو الآن في أواخر الثلاثينات من عمره، من دون زوجة أو وريث، ومن دون عائلة تخصّه، على الرغم من محاولة الاغتيال التي تعرّض لها من قبل. ليت نيكول تتصرف معه بشكل تلقائي من دون تمثيل. فهو يريدها أن تكون طبيعية، يريد الحصول على قلبها، على ضحكتها... يريدها أن تعاهده على البقاء معه.. إلاّ أنه لا يستطيع دفعها إلى ذلك دفعاً..

وقف مالك وأمسك بيدها لتقف على قدميها، وهو يقول: «يبدو أنك ما زلت تشعرين بالحرّ. دعيني آخذك إلى غرفتك يا ليلى، وسوف تشعرين بالسرور عندما تعرفين أن لديك بركة سباحة خاصة بك».

كان عليها أن تلتقي بمالك لتناول العشاء في أحد الأفنية التي تحيط بها

الأسوار. قام طاقم الموظفين بإعداد عشاء مميّز للأميرة. أعجبها الحفل الذي أقيم خارج المنزل، لا سيّما أن لم يضم سوى مدعوين فقط؛ هي ومالك. أقيم في ذلك الفناء موقد، كما شيدت خيمة لتحيط السلطان بخصوصية أكبر.

كانت السهرة مختلفة عن كل ما اختبرته نيكول في أتيك. وغدا هذا الجزء من زيارتها هو المفضل لديها. أحبت تناول العشاء في الخارج، واستمتعت بمشاهدة ألسنة النار وتوهجها في الموقد، فشعرت بالسعادة وهي تتأمل جمال المكان وشاعريته. ألقت نيكول رأسها على ركبتيها وأخذت تراقب النيران ترتفع وتتراقص في الموقد، وقالت: «لو كنت من بَرَكة لتمنيت العيش في هذا المكان. هنا، يبدو كل شيء جميلاً، ساحراً.. لا أستطيع شرح الأمر، لكنه يجعلني أشعر وكأنني... في منزلي».

نظر مالك إليها وقد علت وجهه ابتسامة صغيرة: «تقولين أشياء رائعة عندما لا أتوقع منك ذلك».

استدارت عن النار لتلتفت إليه وعلى وجهها ابتسامة تنم عن الارتياح، وقد ظهر النعاس واضحاً على قسمات وجهها. وسألته: «ما الذي قلته؟».

هزّ رأسه برفق، ورسم دائرة وهمية على السجادة الحمراء وهو يقول: «هذا منزلي، منزلي الروحي. حين تساورني الشكوك آتي إلى هنا».

- شكوك من أي نوع؟

التوت شفتا مالك، وتحولت ابتسامته إلى ما يُشبه الاستهزاء بنفسه، وقال: «بشأن قدرتي على الحكم، وكفاحي لتحقيق التوازن بين ما أحتاج أنا إليه، وما يحتاج إليه شعبي».

حدّقت نيكول به، فإذا به عاقد الحاجبين وقد كسا الشحوب وجهه وعينيه. إنه يملك وجهاً يدل على أصل نبيل، وآلمها أن تراه متألماً، فشعرت بضيق في صدرها. فاهتز كيانها لعمق الأحاسيس التي تشعر بها نحوه. لا يجدر بها أن تهتم لأمره، وأن تعجب به هذا الإعجاب كله. إنها تريده أن يكون لها، وهذا ما لم يكن في الحسبان.

لا يمكن لهذا أن يحصل! لا يمكنها الوقوع في حب مالك أو في حب صحرائه

ومملكته. يجب ألاّ تسمح لنفسها بالتحدث معه والجلوس إلى جانبه أو قضاء حياتها بقربه. شبكت ذراعيها فوق صدرها، فيما اجتاحها سيل من المشاعر وهي تجلس هنا في الظلام برفقته. قالت له: «أنا أشعر بالتعب».

ما تحتاج إليه الآن هو قضاء بعض الوقت بمفردها، لتهدأ وتتمكن من التفكير بالعودة إلى وطنها. ساورها شعور أنها لم ترَ ميليو منذ سنوات طويلة. كيف ستتمكن من العودة؟ والأهم من ذلك، كيف ستتمكن من النسيان؟ إذا تركت مالك، فسوف تترك قلبها معه في بَرَكة. وقف مالك وهو يقول: «سأرافقك إلى الداخل».

رافقها عبر الممرات الضيّقة شبه المظلمة، والتي لا تضيئها سوى أنوار الشموع المعلّقة في أعلى الجدران، ما ذكرها بطابع القصور التي تعود إلى القرون الوسطى. بدا لها بلاط الموزاييك ذي اللونين الأسود والذهبي غريباً أكثر منه مخيفاً.

فتح لها مالك باب الغرفة، وألقى نظرة إلى الداخل. كأنه أراد أن يتأكد أن كل شيء على ما يرام، وسألها: «هل تحتاجين شيئاً؟».

- كلا.

عندئذٍ، تمنى لها ليلة سعيدة وتركها. أغلقت نيكول الباب واتكأت عليه، وهي تتمنى لو أنه بقي معها قليلاً. إنها تحتاج إليه، تحتاج لأن تكون بقربه، لأن تشعر بذراعيه تغمرانها بالدفء..

بدأت بتغيير ملابسها ببطء، وإذا بها تسمع قرعاً على الباب. فتحت نيكول لتجد أنه مالك. شعرت بجفاف في حنجرتها، إلاّ أنها شعرت بالسعادة لرؤيته، مع أنه لم تمض سوى دقيقتان على تركه لها. وسألته: «هل ضللت طريقك؟».

علت وجهه ابتسامة ماكرة لامست شغاف قلبها، ثم قال: «بل إنني نسيت شيئاً».

- ما هو؟

أمسكها من ذراعيها بقوة وجذبها إليه. شعرت بجسده القوي الصلب يلامس جسدها، ثم أحنى رأسه وعانقها. شعرت نيكول بالدفء يغمر كيانها فأغمضت

عينيها، وما لبث أن تمتم قائلاً: «هذا ما نسيته».

- أعدت من أجل هذا العناق؟

- وهل من شيء أهم من الحب؟

مرّر أطراف أصابعه فوق جبينها، ثم فوق أنفها الصغير. لمساته أرسلت الارتعاش في جسدها، وراحت تتساءل عن مغزى كلماته؛ الحب.. من المؤكد أنه لا يعني كلمة الحب بمعناها الحقيقي، كما تستعمل في الثقافة الغربية، ليس كما تفهم هي الحب.. لا بد أنه يعني الحب لما هو مألوف وسار. إنه بالأحرى الإلفة بين شخصين لا أكثر.

قالت كأنها تختبر رباطة جأشه: «وهل تقول ذلك يا صاحب الجلالة لجميع النساء اللواتي تعرفهن؟».

رمقها مالك بنظرة متفحصة، ثم قال: «هناك امرأة واحدة فقط تستحوذ على اهتمامي. إنها أنت».

- وما الذي يعجبك فيّ أكثر من أي شيء؟

- عقلك.

لم يقل لها أحد من قبل إنه معجب بعقلها، أتراه يتكلّم بجدية؟

لم تستطع نيكول كبح ابتسامتها، وقالت: «لماذا؟».

انتصب رأسه عالياً، ثم قال: «إنه حاد، ذكي، ومسلٍّ. ورفقتك ممتعة أيضاً. أمضيت فترة من الوقت وأنا أراقبك، وكنت أتساءل ما هي الخطوة التالية التي ستقومين بها. أنت جريئة جداً».

ما الذي يقصده من كلامه هذا؟ ما الذي يعرفه عنها؟

- أتعني لأنني سأتزوج منك، مع أنك غريب عني؟

ضحك مالك بنعومة، ما جعل عظامها تذوب. وشعرت بالحرارة تغزو بشرتها.

- لن تعترفي بالحقيقة، أليس كذلك؟

- أي حقيقة؟

لم يرغب بأن يجيب عن هذا السؤال وقال: «لا عليك، فلا أهمية لذلك. سأتركك الآن كي تنامي».

ثم انحنى ليعانقها عناقاً سريعاً وهو يقول: «تصبحين على خير، وأتمنى لك أحلاماً سعيدة».

شعرت نيكول بخيبة الأمل وسألته: «ألن تبقى قليلاً لتتناول شراباً معاً؟».

بدا الأسف على وجهه وهو يقول: «إذا بقيت هنا لن أستطيع إبعاد يدي عنك».

عاد مالك إلى الخارج بجانب الموقد. مضت ساعات لم يتمكن خلالها من الخلود إلى النوم. أراد الحرّاس أن يبقوا معه في الخارج، إلاّ أنه كان يحتاج إلى بعض الخلوة مع نفسه هذه الليلة. فذكّرهم أنه محمي خلف جدران القلعة المحصّنة، قلعته التي لم تُقهر منذ خمسمئة عام. وقال لهم: «إن لم أكن في أمان هنا، فأين يمكنني أن أشعر بالأمان؟».

وأخيراً، حين أصبح وحيداً أخذت أفكاره تتسارع. ووجد نفسه يفكر بأمور كثيرة مختلفة في آن واحد. فكر بنيكوليت، فاتنته، وأدرك أنه وجد شريكته الحقيقية. فكّر بفاطمة وألمها وعارها. وتمنى لو أنه كان يعرف ما تتوقعه منه، ولو أنه قام بإيجاد الشريك المناسب لها قبل اليوم. أخبرته مراراً أنها تفضّل البقاء وحيدة على أن تتزوج بشخص غريب وتترك القصر. فكّر بأخيه الأصغر خالد، الذي يعيش الآن في لندن بعد أن أتم دراسته في أوكسفورد كما فعل هو. لكن خالد، على العكس من مالك، اختار الانفصال عن بَرَكة ليصبح مواطناً حقيقياً للمملكة المتحدة. لم يفهم يوماً مالك قراره هذا إلاّ أنه تقبّله.

لكن خالد، باختياره لأن يصبح مواطناً بريطانياً، فقَدَ كل حق له بالخلافة، بعد أن كان المرشح الثاني لهذا المنصب. شعر مالك بالغضب من شقيقه لأسباب مبدئية؛ فهم عرب وموطنهم شمال أفريقيا. ولم يتفهم مالك مخاوف شقيقه إلاّ حين تعرّض لمحاولة الاغتيال منذ سنة خلت.

جثم بجانب الموقد وراح يحدّق في ألسنة اللهب الحمراء المضيئة، تاركاً الدخان

اللاذع يتصاعد حوله فيصيب عينيه بالألم ويتغلغل في رئتيه. رائحة الدخان وطعمه ذكّراه بأيام شبابه.

يومها كان عليه أن يقاتل، وعندما هدأت المعارك، تسلم هو زمام الحكم. وها هو يقود بلاده منذ خمسة عشر عاماً، عرفت خلالها بَرَكة التقدم والازدهار تحت قيادته. إلاّ أنه يعرف التاريخ جيداً وقد درسه عن ظهر قلب. كل رجل هو جزء من كل، والرجل يذهب بينما يبقى التاريخ ويستمر مع سواه. ومالك يدرك أنه لن يعيش إلى الأبد، وهو يتقبل هذه الفكرة. إلاّ أنه بحاجة ماسّة إلى ابن يقود شعبه من بعده.

لفت انتباهه صوت حفيف قماش، فاستدار ليرى نيكول قادمة نحوه ترتدي أحد الأثواب التقليدية، وقد انزلق الوشاح عن رأسها ليظهر شعرها البني المنسدل على كتفيها. انضمت إليه بجانب النار وهي تسأله: «ألم تذهب بعد إلى النوم؟».

أجاب بنبرة حازمة: «كلا».

راحت تراقب وجهه للحظات طويلة على ضوء النيران وعادت تسأله: «هل تفكر بفاطمة؟».

قال مالك بصوت أجش: «أفكر بأشياء كثيرة».

ألقى رأسه إلى الوراء، ونظر إلى السماء، وهو يفكر إنه لم يبق سوى بضع ساعات تفصلهما عن بزوغ الفجر. بدت السماء واسعة لا نهاية لها، ذات لون أرجواني، وهي تبدو مرصّعة بالنجوم. هنا، وسط هذه الجبال، يشعر مالك وكأنه جزء من الطبيعة، جزء من الرياح والشمس والرمال والهواء. هنا ينسى أنه ملك، ويصبح رجلاً عادياً متمتعاً بحياته. أطلق تنهيدة، وتخلّل شعره بأصابعه قائلاً: «كم أفتقد هذه الحياة، فأنا لا أبتعد عن المدينة بما فيه الكفاية».

لم تعلّق نيكول على كلامه، ولاحظ مالك نظراتها المترقّبة. أدرك أنها تريده أن يتكلم، وأنها عادت وانضمت إليه لتسمع ما يجول في خاطره. فتابع يقول مالئاً السكون بصوته: «في ما مضى، كنت أقضي معظم أيام فُرصي هنا، فلطالما بدت هذه الجبال والرمال مميزة».

واستدار لينظر إليها. بدت عيناها الزرقاوان أشد زرقة في منتصف الليل. وشعر بأنها مرتاحة وبأنها تخلّت عن حذرها، إذ إنها غالباً ما تخفي مشاعرها خلف قناع. وفكر أن جميع أفراد الأسر المالكة يقومون بذلك على الأرجح، فالعالم كله يراقبهم. لذا عليهم أن يتوخوا الحذر. لكن من الجيد أن يراها هادئة ومستغرقة في التأمل. وأضاف قائلاً: «شقيقي وأقرباني جميعهم يستمتعون بالمجيء إلى الجبل. فنحن نشعر بالمتعة حين نخيّم في الخارج، ونمضي الليل مجتمعين حول النار، لكنهم جميعاً غادروا بَرَكة، أما أنا فلم أستطع ذلك، لأنني لم أستطع أن أتخذ بلداً آخر لي غير بَرَكة».

- ليس عليك القيام بذلك، فهذه بلادك وأنت نشأت وترعرعت فيها.

- وأنت ولدت وترعرعت في ميليو، لكنك مضطرة إلى الرحيل.

تمهلت نيكول قليلاً قبل أن تقول: «أنا لست قدّيسة. حاولت أن أتمرد مرّات ومرّات».

راح يراقب وجهها بدقة ثم قال: «لكنك هنا الآن على الرغم من ذلك».

شعرت بالاحتراق في كل جزء من وجهها، حيث تقع نظراته. إنه رجل استثنائي، وهو يمتلك قوة غير عادية، إذ ليس فيه أي شيء ضعيف ومستسلم.

عضّت شفتها السفلى بشدة بين أسنانها، وتحرّكت مبتعدة عنه. إنه يحتاج إلى زوجة، والآن ظن أنه وجد مليكته. وعلى الرغم من ذلك فهي تنوي أن تسافر إلى بلادها خلال أيام.

أمسك مالك كتفيها ليمنعها من التراجع، وقال: «أرى الحزن في عينيك من جديد. بالأمس، قطعوا علينا انسجامنا، ولا أظن أن ذلك سيحصل مجدداً».

كانت أصابعه تمسك بكتفيها بقوة، وسألها: «أليس هناك حزن في داخلك؟ أرى في عينيك صحراء صامتة.. لا متناهية... أرى شعوراً بالوحدة».

- لكنني لا أشعر بالوحدة.

كيف يمكنه أن يقرأ أفكارها على هذا النحو؟ إنها تحسّ أحياناً، كأنه جزء منها.. كأنه نصفها الآخر.. كيف يمكن لأي كان - لا سيّما هذا الرجل - أن

يفهمها بهذا الشكل؟

أحنى مالك رأسه وقبّل جبينها برقة متناهية. ثم قال: «أنت وحيدة منذ زمن بعيد، وأظن أن هذا هو الثمن الذي تدفعينه لأنك أميرة جميلة. أنا لم أرَ في حياتي امرأة في مثل جمالك..».

- مالك.

وضع يده على خدّها، قائلاً: «كنت تعيشين في برج حجري مرتفع».

- كلا، ليس الأمر كذلك. لم أعش يوماً بهذا الشكل. أنا لست..

لم تتمكن نيكول من متابعة كلامها، وابتلعت ريقها بصعوبة.

- لست، ماذا؟

كيف تخبره بأنها ليست المرأة التي يظنها وبأن جميع افتراضاته خاطئة؟

احتضنت نيكول يده بيدها وضغطتها فوق وجنتها. ثم التقت نظراتهما، ورأت الرقة والحنان يفيضان من عينيه. بدا وكأنه يعرف أنها تخفي أسراراً قد تُسبب له الأذى، ولكنه يسامحها مسبقاً. لا يعقل أن يكون ذلك صحيحاً! إنه لا يعرف شيئاً.. لا يمكنه أن يعرف.. أم أنه يعرف؟

هناك الكثير من الكلام كي يقال. ولكنها لعبت دورها في هذه التمثيلية لفترة طويلة ولم تعد تعرف كيف تخرج منها. قال مالك بهدوء: «ليس عليك سوى أن تبدأي بالكلام».

- هل يمكننا الجلوس؟

بدأت ساقاها ترتجفان من الخوف والتعب، أدركت أن عليها أن تتكلم، وأنها قد تشعر بالاختناق إن لم تفعل.

جلس مالك على السجادة القرمزية اللون، المطرّزة بالخيوط الذهبية والسوداء وجلست نيكول إلى جانبه. شعرت بالارتياح لأنه لم يبتعد، وقالت: «أنا أشعر بالخوف».

وانتظرها لتُكمل كلامها...

راحت خفقات قلبها تتسارع وشعرت بالدوار. تعثرت الكلمات في فمها، إلاّ

أنها قالت أخيراً: «أنا قلقة بشأن المستقبل. قلقة بشأن ميليو، وجديّ، وبشأن ليلي..».

- وبشأننا نحن الاثنين. أنت قلقة بشأننا أيضاً.

- نعم، أنا كذلك.

فجأة بدا فكّه ناتئاً وظهر الاكتئاب على تعابير وجهه، وقال: «وأنا أيضاً».

- أحقاً؟

أومأ مالك ببطء، قائلاً: «أنا أيضاً أشعر بالقلق من أجل المستقبل».

شعرت أن الكلمات تخرج من فمه ثقيلة ما جعل صوته محمّلاً بالحزن. أرجوك يا إلهي، لا تجعلها تسبب له البؤس! أرجوك، دعها لا تزيد من أعبائه، ولا تكون هي سبب حزنه!

- لماذا؟

- أنا لا أؤمن بالطلاق. لا أريد أن أتزوج لأعود فأطلّق بعد حين.

٨ ـ عطر وليل وعناق

إنه يشك بنواياها، إذن!

قال: «أنا لست كبعض الملوك الذين يتزوجون لكنهم يحتفظون بحياة منفصلة عن زوجاتهم».

حكّت نيكول أصابعها إزاء القماش المخملي، وقالت: «إذا ما تزوجنا لن أرغب مطلقاً بأن نعيش منفصلين».

ردّد كلماتها: «إذا ماتزوجنا؟ ألم تتخذي قرارك بعد؟».

تطاولت نحوه يائسة، فلامست ظاهر يده بأصابعها وهي تقول: «أريد أن أكون معك».

- الليلة فقط أم إلى الأبد؟

إذا أجابت بصدق عن سؤاله، وقالت: الليلة فقط، فمن المحتمل ألا تبقى معه هذه الليلة. وإذا كذبت عليه وقالت: إلى الأبد، فسوف تبقى الليلة لكنها ستخسر إمكانية البقاء إلى الأبد. ما من طريقة تجعلها تكسب الإثنين معاً.

رفع مالك يده وضغط أصابعها بأصابعه، وتشابكت أصابعهما معاً. ثم قالت نيكول: «أنا أخشى من الزواج. إنه يخيفني».

- وما هي الخيارات المتبقية لنا؟

أذهلها هدوءه، وقالت: «ما إن تتزوج تفقد حريتك في الاختيار. فلا تستطيع إقامة علاقات جديدة والتعرف إلى شركاء جدد أو طرق جديدة...».

- لكن، كم من الخيارات لديك في الحقيقة، يا عزيزتي؟ فأنت لا تملكين الكثير من الخيارات لأنك أميرة من أسرة دوكاس.

www.elromancia.com

ربما هذا ما يجعلها تشعر بالإحباط. فهي لا تملك الخيارات التي يملكها الآخرون لا يمكنها أن تفعل ما يحلو لها. فالواجب والالتزام سيف مسلط فوق عنقها على الدوام.

وتابع يقول: «بالإضافة إلى ذلك، أنا لا أشعر بأنني مقيد. عندما كنت فتياً تمتعت بعزوبيتي، أما الآن، وقد أصبحت في منتصف الثلاثينيات، أصبحت أعرف ما الذي أريده».

- لكنني لست أنا من تريدها حقاً.

- بلى، أؤكد لك ذلك.

راح قلبها يخفق بسرعة، وسألته: «ما الذي يعجبك فيّ؟».

- أنت ذكية، مفعمة بالحيوية، ومثيرة للاهتمام.

لم تعرف نيكول بماذا تجيبه، كيف عليها أن تفكر... أن تشعر.

- لكنك ما كنت لتتزوجني لو لم أكن من أسرة دوكاس.

- وما كنت أنت لتتزوجيني لو لم أكن ملكاً.

لن يصل حديثهما هذا إلى أي مكان. وعادت تقول: «لا أعرف كيف يمكن لزواجنا أن ينجح، وكلانا نتمتع بشخصية قوية وآراء مستقلة..».

- أتظنين أن الزواج بين شخص قوي وآخر ضعيف هو أفضل؟ أتظنين أن كلاً منّا ينجح أكثر مع شريك عديم الشخصية، متبلد المشاعر؟

بحثت عيناها عن عينيه. أتراه يعني ما يقول؟ أيمكنه حقاً أن يقبل بها كزوجة، حادة الطباع، عنيدة، مندفعة؟ تحركت قليلاً لتسحب يدها من يده، لكنه لم يفلت أصابعها، وقال لها: «لِمَ أنت خائفة؟».

نظرت نيكول إلى يديهما، إلى أصابعهما المتشابكة. إنه أمر جيد. إنها ترتاح إلى ملامسته، لكن دفء وارتياح اليدين المتشابكتين سرعان ما يتحول إلى قيد ثقيل.

- الزواج فخ للمرأة.

- كلا.

- أنت رجل، ولن تستطيع فهم الأمر.

- أنا رجل، لكنني لا أرضى بأن يكون الزواج فخاً بالنسبة لزوجتي.

غرزت نيكول أظافرها في كفها، وقالت: «هذا ليس خياراً يقوم به الرجل، بل هذا ما يحدث. الزواج.. الأمومة.. الأطفال. كل ذلك يثقل كاهل المرأة، فتتغير أولوياتها، بل تضطر إلى تغييرها».

أحرقتها نظرات عينيه الحادة، كان ينظر إليها بقوة كادت تصيبها بالدوار. ثم قال: «وهل هذا أمر سيء؟».

- إنه كذلك إذا كنت ممن يقدرون حريتهم.

- وهل حريتك ذات قيمة عالية؟

شعرت نيكول أنه بات يصعب عليها أن تتنفس. شعرت بالهواء ثقيلاً، مرصوصاً، ضاغطاً عليها. إنه لا يفهمها. إنه لا يستطيع رؤية ما تراه هي.. لقد قضى الزواج على مهنة أمها، فحرم الناس من موهبتها وصوتها الرائع، بعد أن كرّست طاقتها كلها من أجل زوجها، وتحملت معه أعباء الحياة. أما شانتال، فوجدت نفسها عالقة بعيداً في قصر لاكروا، فعاشت منسية، مهملة، ضحية الكذب والخداع.

- إنها كذلك بالنسبة لي.

أشاحت ببصرها بعيداً عنه، وهمست قائلة: «أخشى أن تقص جناحَي».

شعرت بالدموع تخنقها فابتلعت ريقها ومنعت دموعها من التساقط، ثم تابعت تقول: «أكره حصول ذلك. وسوف أكرهك من أجل هذا الأمر».

- ربما كان زواجك الأول سيئاً، لكن والديك.. كانا سعيدين بزواجهما. يعلم الجميع أنهما كانا متقاربين جداً.

لوت نيكول أصابعها بقوة وقالت: «ما كان على أمي أن تتخلى عن مهنتها. ما كان لذلك أن يحصل».

- لم يكن بإمكانها أن تعيش مع والدك، وتؤسس أسرة مع استمرارها في حياتها الفنية.

هزّت رأسها موافقة: «بالضبط. ومع أنك لا تدرك ذلك الآن، إلاّ أنني لن

أكون المرأة التي تريدها، أو التي تحتاج إليها. سوف تحاول أن تغيّرني، وهذا ما يحصل على الدوام، ما إن يقع الناس في الحب. لكن هذا ليس كافياً...».

وتوقفت عن الكلام، فراح مالك يتفحصها للحظات طويلة قبل أن يهب واقفاً على قدميه ويسحبها معه أيضاً وهو يقول: «تعالي، أظننا نحتاج إلى بعض التغيير».

كانت أبواب القلعة كلها مقوّسة الشكل تعلوها قناطر من الحجر يغلّف كل منها قوس من الخشب المزخرف الأنيق. وقد بدت كل قنطرة مميزة بنقوشها وزخرفتها. قادها مالك عبر أحد الأبواب إلى غرفة جلوس مفروشة بالأرائك الشرقية المريحة، حيث وُزعت الشموع في زواياها على طاولات صغيرة. وسألته نيكول: «ما هذه الغرفة؟».

وراقبته وهو يغلق الباب خلفهما بهدوء قبل أن يجيبها: «إنها غرفة جلوس خاصة لا يدخل إليها أحد سواي».

ثم استدار نحوها، وأمسكت يداه بوجهها قبل أن تنزلق أصابعه بين خصلات شعرها الحريري، وجاء صوته خشناً حين قال: «أنا أريدك.. يمكنك أن تثقي بي، ليلى. فأنا لن أخذلك أبداً».

ابتلعت نيكول ريقها وهي تمنع دموعها من التساقط على خديها. ولم تستطع منع نفسها من التأثير، فقد أحبت ملامسة يديه لوجهها وشعرها، أحبت قوة عضلاته ورائحة عطره. ورغبت بأن تكون له وحده.

لطالما كانت امرأة قوية، منيعة، ومصمّمة. لكن على الرغم من قوتها، لم تستطع مقاومة سيل المشاعر التي أثارها فيها. إنها تتوق إلى عناقه كما لم تفعل يوماً.. وعانقها.. أحسّت نيكول بخدر لذيذ ينسل إلى حواسها كافة.

شعرت بأنفاسه الدافئة، وانبعثت الحرارة في جسمها وفجأة شعرت بالارتجاف عندما راحت أصابعه تدغدغها خلف أذنها. وكأنما شعر مالك بارتجافها فانحنى يعانقها مرة أخرى. وساد حولهما سكون رائع وكأن الزمن قد توقف عن المسير. لقد باتت تعرفه جيداً، وتعرف من ملامحه أنه يتمتع بقربها كما تتمتع هي بقربه. نظرت إلى عينيه اللتين تلتمعان بقوة وفكرت أن ثقته بنفسه لا

تعرف حدوداً. راقبته وهو يشغل جهاز الصوت القريب منهما، وسرعان ما انبعثت منه موسيقى ناعمة دغدغت حواسها.

عاد مالك إليها. ثم أخذها بين ذراعيه وراحا يتمايلان راقصين على وقع الأنغام الساحرة. كانت الأنوار خافتة ما جعل الجو حولهما في غاية الرومنسية. آه، كم تحب البقاء بين ذراعيه، الإحساس بصلابة جسمه، كم تحب الطريقة التي يغمرها بها ويضمها إلى صدره وذراعاه ملتفتين حولها.

راحا يتحركان ببطء شديد، وقد بدا مالك متحكماً في نفسه. وسمعت نفسها تهمس: «لا أريد لهذا أن ينتهي، إنه..».

وسكتت ثم أغمضت عينيها كأنها تخشى أن تفقد ما تشعر به من نشوة. وتمنت لو أنها تستطيع أن تخبره بمشاعرها الحقيقية نحوه، وبأنها لم تعش مثل هذه اللحظات مع أي رجل قبله، لكن بدا من الصعب عليها أن تتكلم وهي غارقة في هذا الجو الشاعري الساحر. وما هي إلاّ لحظات حتى تغيرت الموسيقى، فشدها مالك إليه أكثر. وشعرت بتوتر عضلات كتفيه تحت يديها. فتعلقت به أكثر وكأنها تريد الذوبان فيه. وراح قلبها يخفق بقوة في أذنيها. وسألها: «هل أنت مستمتعة بالرقص؟».

فهمست: «نعم، وأنت؟».

تنهد مالك وشعرت به يبتسم قبل أن يجيبها: «أظن أن هذا رائع، لم أرغب بالرقص مع امرأة على هذا النحو من قبل».

- آه!

ماذا لو أدرك حقيقة مشاعرها هي؟ لم تستطع إيجاد الكلمات التي تعبر عن أحاسيسها في تلك اللحظات. لامست خده بأصابعها، متحسسة لحيته النابتة على امتداد فكه. ثم همست: «أنت وسيم جداً».

- كلا، لست كذلك.

- بلى.

قال متذمراً: «لدي أنف كبير».

تجاهلت نيكول ارتعاشة سببتها ملامسة يده لخصرها، وقالت: «كلا، إنه ليس كذلك».

لكنه أصرّ قائلاً: «كما أن فمي كبير أيضاً».

- توقف عن الكلام، أرجوك!

ضمّها مالك إليه بقوة، جعلتها تذوب شوقاً وتحترق بين ذراعيه. وأدركت في تلك اللحظة أنها وجدت حب حياتها، التقت بنصفها الآخر. لقد أسر مالك لبها، واستولى على قلبها وعقلها وجسدها وروحها.

قال لها بصوت عميق أجش: «أنت لي، ولن تكوني لأحد سواي».

ووجدت نيكول نفسها تجيب قائلة: «أعرف ذلك».

- لا تردد بعد اليوم بشأن زواجنا، أليس كذلك؟

- نعم.

في تلك اللحظة، شعرت نيكول كأن صخرة قد أزيحت عن صدرها. وكأنها رأت نوراً ساطعاً عند نهاية النفق. لا سبب يمنعها من الزواج بمالك، يمكنها أن تفعل ذلك. وسوف يكون هذا الزواج لمصلحة الجميع.. بلادها، أسرتها، وقلبها..

اندسّت به وقالت: «أنا سعيدة لأننا سنتزوج بعد ستة أيام. إنها ستة أيام فقط، أليس كذلك؟».

- أظنها أصبحت الآن خمسة.

رفعت رأسها، والتقت نظراتها بنظراته فقالت: «يبدو ذلك جيداً».

- هل أنت واثقة؟

- نعم.

وتخيلت مراسم الزفاف في أتيك، وتخيلت نفسها ترتدي أحد تلك الأثواب التي صمّمت خصيصاً لها. لا بد أن مالك سيبدو وسيماً مهما كان ما يرتديه. بدت لها الصورة رائعة بأكملها.

باستثناء تفصيل صغير إلاّ أنه أساسي: ليلي!

تشبثت بذراعي مالك وقد شعرت أنها بحاجة إلى الإحساس بقوته ودعمه، ثم قالت: «أريد ليلي هنا، يجب أن تكون بقربي».

- هذا ما سيحصل.

- قد لا يسمح لها جدّاها، آل ثيبودين بذلك و..

- بل سيفعلان. لا تقلقي، عزيزتي. سوف أهتم بكل شيء.

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة

٩ ـ على كرسي الإعتراف

في صباح اليوم التالي، استيقظت نيكول وهي تشعر بارتياح كبير، على غير عادتها. استحمّت وبدّلت ملابسها وتوجهت إلى الغرفة التي يقدم فيها الفطور. ما إن فتحت الباب حتى رأت مالك واقفاً وهو يشبك ذراعيه فوق صدره. مرّرت يدها في شعرها الطويل لترده إلى الخلف قائلة: «لم أتوقع رؤيتك هنا».

- كنت أعمل في المكتب منذ ساعتين، لكنني جئت إلى هنا لأتناول الفطور معك.

شعرت نيكول بالحرارة تغزو وجهها، وعلا الاحمرار خدّيها وهي تحاول تجنب نظراته، فتنحنحت قائلة: «آه، هذا جيد!».

وشعر مالك بإحراجها، فضحك ضحكة خافتة وقال مازحاً: «إلا إذا رغبت بأن نقوم بشيء أكثر إثارة».

فهزت رأسها نفياً وهي تتجنب النظر إليه، وما هي إلا لحظة حتى رنّ مالك الجرس إيذاناً بتقديم الفطور. وعلى الفور ظهرت خادمة تحمل صينية بين يديها، أخذها منها وسار إلى حيث جلست نيكول على أريكة مريحة، ليضعها على الطاولة أمامها ثم يستقر إلى جانبها. سألها وهو يناولها فنجان القهوة: «كيف تشعرين اليوم؟».

تقلّصت عضلات نيكول في داخلها وهي تراقبه. إن وسامته توازي وسامة عشرة رجال معاً. وسرت الحرارة في جسدها مجدداً وهي تقول: «بخير، شكراً لك».

اتكأ مالك على أحد جانبيه ملقياً ثقل جسمه على ساعده، وسألها: «هل غيّرت

رأيك بشأن الزواج؟».

- كلا. وأنت؟

- أنا؟ بالطبع لا. ولِمَ تظنينني عانقتك الليلة الماضية؟ كي أقنعك فقط.

أخفضت نيكول بصرها قائلة: «ليس ذلك ما جعلني أقتنع».

لكن الاحمرار الذي علا خدّيها بدا خير دليل على نجاح خطته. وجاء صوت مالك خفيضاً وهو يقول: «أريدك بقوة. لا تصدقين كم أرغب بك، وماذا أشعر حيالك.. أريدك بجنون».

لم تعد نيكول تستطيع التنفس. إنها تريده أيضاً.. تريده بكل جوارحها. تركزت نظراته على وجهها، ثم قال: «لدي فكرة رائعة!».

- وما هي؟

- أظن أن علينا أن نحتفل بزفافنا في ميليو.

إنه آخر شيء توقعت نيكول سماعه، وقالت متلعثمة: «زفاف.. في ميليو؟».

- هكذا تكون أسرتك بأكملها بقربك..

- ظننت أننا سنقيم زفافاً تقليدياً هنا. أعني.. كي يتم نقل الحدث على شاشة التلفزيون ليكون احتفالاً وطنياً.

- سوف يتم نقل الوقائع من هناك.

تملكها الذعر وسارعت تقول: «قد تصبح الأمور أكثر صعوبة بالنسبة إلى أسرتي، فجداي ليسا بصحة جيدة...».

- لهذا السبب سنذهب إلى هناك، فهكذا لن يضطر الجميع إلى السفر، فالكاتدرائية ليست بعيدة عن القصر.

انحنت نحوه ومررت يدها على خده في محاولة لإلهائه، ثم قالت: «يمكننا أن نذهب لرؤيتهم في ما بعد.. بعد العودة من شهر العسل. دعنا لا نعقّد الأمور، يا مالك. فهناك سيقومون بتحضيرات كثيرة. وأنت تعلم ضخامة احتفالات الزفاف الملكي في أوروبا».

- تم الاهتمام بكل شيء.

شعرت بجفاف في فمها، فتطاولت لتمسك بكوب العصير، وراحت ترشف منه ببطء، علّها تتمكن من جلاء ذهنها. وسألته: «ماذا تعني؟ تم الاهتمام.. بماذا؟».

- هذا ما قلته لجدك صباحاً..

- ماذا؟

استقام مالك في جلسته وطوّق كتفيها بذراعه، قائلاً: «من الأفضل أن تشربي العصير، فأنت تبدين شاحبة».

لكن نيكول لم تستطع أن تشرب.. لم تستطع أن تفكر.. أمسك الكوب ورفعه إلى شفتيها قائلاً: «أنت بحاجة لتناول السكر، اشربي. لا أريدك أن تصابي بالإغماء الآن، فأمامنا أشياء كثيرة نقوم بها قبل سفرنا».

أجبرت نيكول نفسها على ابتلاع العصير قبل أن تدفع بالكوب بعيداً قائلة: «أنا لا أفهم شيئاً مما تقوله».

- أنت أرملة ولست مطلقة، وهذا يؤهلك كي تحصلي على زواج آخر مليء بالبذخ، هذا ما تحدثت بشأنه مع جدك هذا الصباح. تكلمت معه أولاً ثم أمرت الموظفين في مكتبي بالمباشرة بكل التحضيرات اللازمة للانتقال من أثينا إلى بورتوتيرزا.

تحدث مالك إلى جدها...

رمشت نيكول بعينيها: «ماذا قلت له؟».

- قلت له إنك هنا، وإنك وافقت على الزواج بي.

- من قلت له إنني أكون؟

نظر مالك إليها وكأنها فاقدة لصوابها، وأجاب: «وما الذي تظنينه؟».

تناولت كوب العصير ورشفت منه بسرعة، ثم مسحت فمها ورفعت بصرها إليه، قائلة: «هل قلت له إنني شانتال؟».

- نعم.

- وماذا قال لك جدي؟

- قال لي: كلا، لا يمكن أن تكوني أنت شانتال، لأن شانتال في لاكروا، وهو قد تحدث إليها لتوه.

بحثت عينا نيكول عن عينيه: «مالك!».

- نعم، يا عزيزتي.

- ما الذي تفكر فيه الآن بالضبط؟

- أفكر أن لدي أميرة محتالة.

يا له من وصف دقيق! وضعت كوبها على الطاولة بهدوء، وهي تشكر الله لأنه لم يغضب منها. فهي لا تعتقد أن بإمكانها معالجة الأمر إن كان سيغضب منها. وقالت: «على أي حال، أنا أميرة من أسرة دوكاس».

- لكنك لست شانتال.

- كلا.

ابتسم لها مالك ابتسامة ساخرة، على الرغم من الظروف المستجدة. شعرت بارتياح في عضلات معدتها المتقلّصة. ربما شربت العصير بسرعة سببت لها ذلك.

- أنا..

- نيكوليت.

أومأت نيكول بارتباك: «وكيف عرفت؟».

- لقد أمضينا السهرة بالأمس في تقارب حميم، لكن ليس هذا ما جعلني أعرف.

وتردد قليلاً، ما جعل قلبها يرتجف قلقاً. ثم قال معترفاً: «عرفت ذلك منذ البداية، منذ لحظة وصولك إلى هنا».

- ماذا؟

- تكلمت مع شانتال على الهاتف من قبل، وأعرف صوتها. أنت ذكية، نيكول، وجميلة، لكنك لا تشبهين أختك الكبرى في شيء.

أسندت نيكول ظهرها إلى مسند الأريكة، وراحت تحدّق إلى السقف. ثم

www.elromancia.com

قالت: «أهذا السبب تحدثت إلى جدي؟».

- كان يعلم أنك هنا منذ البداية.

- مثلك تماماً.

أغمضت عينيها بشدة. إن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ. وسألته: «لماذا لم تواجهني بالحقيقة؟ لمَ لم تجبرني على الاعتراف؟».

بدت التسلية واضحة في عينيه وهو يقول: «لقد.. تمتعت بذلك. وجدت تمثيليتك مسلية».

لم تصدق أنه قال ذلك.. لم تصدّق أنه يعني ما يقول.. لقد عاشت الأيام الماضية في دوّامة من القلق بينما كان هو يتسلّى.

- وما الذي سيحدث الآن؟

- سوف نذهب إلى ميليو ونتزوج.

- أما زلت تريد الزواج بي؟

قال بنبرة صوت خشنة تدل على نفاد الصبر وكأنه لا يصدق ما يسمعه: «نعم».

- ماذا قال جدي أيضاً؟

جاءت ضحكته ناعمة وقال كأنه يغيظها: «قال إنك حصلت على ما تستحقينه. وطلب مني أن أذكرك بأنه قال لك ذات مرة..».

- بأنني سألتقي يوماً بمن هو ندّ لي.

وفتحت عينيها ثانية، وقد شعرت كأنها كانت تتزحلق فوق مزلجة. ما الذي حصل؟ كيف تغيرت الأمور بهذه السرعة؟ وكاد رأسها ينفجر: «ربما نستطيع البقاء هنا ونسيان أمر الزفاف الكبير».

- لسنا مضطرين إلى ذلك. فنحن منسجمان تماماً ونستحق احتفالاً كبيراً.

لطالما كانت نيكول امرأة واقعية. إلاّ أنها لم تكتفِ مرة بأنصاف الحلول، بل تذهب عادة حتى النهاية في كل ما تقوم به. والآن، شعرت بأن عليها أن تكون صادقة معه، فقالت: «لكنك أردت الزواج بشانتال».

- ومع ذلك، فقد حصلت على نيكول.

هزها كلامه من الداخل، وأدركت أنها لم تكن تخدعه، بل كانت تخدع نفسها. فهي أيضاً أحبته.

- مالك..

ولم تدرك أنها تلفظت باسمه بصوت مرتفع، إلاّ عندما طوقها بذراعيه وعانقها. سرت رعشة من السعادة في كيانها بأكمله، فأغمضت عينيها تاركة مشاعر الحب واللهفة تجتاحها ببطء، لقد وقعت في حبه حقاً! لكن، كيف حصل ذلك؟

فتحت نيكول عينيها لتواجه نظراته عينيه الفضيتين، نظرت ملياً في أعماق تينك العينين اللتين تشعّان بابتسامة صامتة. وأدركت كيف حصل الأمر... إنه رائع، مذهل، وسيم، ذكي، صبور، ومتسامح.

- لست مضطراً إلى الزواج بي فقط لأنني هنا.

مرّر إصبعه ببطء على عنقها قائلاً: «لا يمكنك الهروب مني».

- بلى.

لكن صوتها بدا مرتعشاً. نظر إليها مالك وقد بدا الدفء في عينيه الفضيتين، وقال موبخاً بلطف: «كلا، لا يمكنك الهروب، لأنني لن أسمح لك بذلك».

إلاّ أن نيكول أدركت أن هذه مجرد كلمات أراد أن يغيظها بها، أن يداعبها، ويسليها. إنها واثقة من أنه سيفعل دوماً ما فيه خير لها. حتى لو قال إنه لن يدعها تذهب إلى أي مكان، فإنه لن يبقيها رغماً عن إرادتها إذا ما رغبت بالمغادرة يوماً.

- لم يكن الزواج وارداً في خطتي. لم أخطط أبداً للبقاء في بَرَكة.

أحسّت كأن هذه الكلمات تنتزع منها انتزاعاً. أما مالك فبهتت ابتسامته وهو يقول: «أعلم ذلك».

بعد يومين، عادا إلى أثينا، إلاّ أنهما لم يمكثا هناك سوى ساعات قليلة. منحها مالك وقتاً لكي توضب حقائبها قبل أن يتوجها إلى ميليو حيث تنتظرهما أسرتها.

عندما وصلت إلى غرفتها، طلبت نيكول من علياء أن تساعدها قائلة: «أنا بحاجة إلى مزينة شعر قديرة».

ثم شرحت لها ما الذي تريده منها بالضبط. بدت علياء مذهولة لكلامها إلاّ أن نيكول ظلّت هادئة، فمالك يعرف من هي الآن، وقد حان الوقت لتعود شقراء من جديد. إنها على استعداد تام لتمحو كل أثر لشانتال من شخصيتها.

في طريقها إلى المطار، ارتدت نيكول ثوباً مع غطاء للرأس. فهي لا تنوي أن تسبب صدمة لكل من يعملون في القصر. يكفي أن علياء ستخبرهم بما حصل بعد مغادرتها إلى ميليو. أقلعت طائرة مالك الملكية من مطار أتيك عند الساعة الثانية بعد الظهر. تستغرق الرحلة من هناك حتى بورتوتيرزا ثلاث ساعات ونصف الساعة. لكن هذه المدة بدت لنيكول كأنها الأبد. بعد دقائق من إقلاع الطائرة، اقترب منها مالك ورفع الغطاء عن رأسها قائلاً: «هل يمكنني أن أرى كيف تبدو خطيبتي؟».

تحملت نيكول تفحصه الطويل لها بصمت تام، وذكّرها ذلك بيومها الأول في بَرَكة حين دار حولها مرتين، متفحصاً إيّاها بدقة من رأسها حتى أخمص قدميها، وسألته: «هل نجحت في الامتحان؟».

- هل هذا هو لون شعرك الطبيعي؟

- ألم تحبه؟

- أنت شديدة الاشقرار.

أدارت نيكول رأسها وراحت تنظر من النافذة وهي تعض شفتها، إلاّ أنها لم تستطع ضبط أعصابها فقالت: «لست مضطراً إلى الزواج بي».

- أهذا ما تقولينه الآن بعد أن قررنا إتمام الزفاف في مدينتك؟

- لم يفت الأوان بعد.

وفوجئت به يضحك ضحكة ملؤها التسلية وهو يقول: «لن أدعك تفلتين مني».

ثم تلاشت ضحكته وظل يتأملها للحظات قبل أن يسألها: «هل تشعرين بالحب نحوي؟».

بادلته نيكول نظراته الملتهبة تلك ووجهت إليه السؤال نفسه: «وأنت، هل

تشعر بالحب نحوي؟».

لم يقل مالك شيئاً، وإنما راح ينظر إليها كأنه يعرفها جيداً ويفهمها جيداً. بدا شخصاً لطيفاً مليئاً بالود والحنان، ما جعل المشاعر تغلي في داخلها وفي شرايينها. إنه يريدها، وهو يحبها. مع العلم أنه لم يقل لها بصراحة: أنا، مالك رومان نور، أحبك. لكن حبه لها يبدو واضحاً في جسده، وعينيه، وقلبه. قد لا يستخدم مالك كلمة «حب» كما يستخدمها الأوروبيون، لكن العاطفة التي تراها في عينيه هي كل ما تطلبه في الرجل الذي تحبه. وأحسّت بموجة من الحب تجتاحها حتى تكاد تسبب لها الألم.

فك مالك حزام الأمان من حوله وقال: «فلنتناول شراباً منعشاً، أظن أن كلينا يحتاج إلى ذلك».

بعد ساعات ثلاث، دارت الطائرة دورة كاملة حول بورتوتيرزا قبل أن تحطّ في مطارها. ربطت نيكول حزام الأمان حولها، وحبست أنفاسها وهي ترى بورتوتيرزا من الجو. كان الوقت بعد الظهر، وكانت أشعة الشمس منعكسة فوق مياه المحيط الفيروزية اللون، فبدت صفحة المياه أشبه بصفيحة من الفضة البيضاء اللامعة. وبدت الأبنية التاريخية في بورتوتيرزا رائعة بلونها التبني تحيط بها التلال الخضراء الغنية. إنها ميليو!

كانت في انتظارهم سيارة مرسيدس، وما هي إلاّ دقائق حتى وصلوا إلى بوابات القصر، واندفعت السيارة تجتاز طريقاً محاطاً بأشجار النخيل التي يعود عمرها إلى مئات السنين. ثم أطل عليهم القصر الذي شيد من الحجارة المنحوتة، بمدخله المزين بالتماثيل، وسطحه المقبب، وامتدت إلى جانبيه الأبنية الملحقة به فبدت كالجناحين. وما إن بدأ بصعود السلالم الأمامية، حتى نظرت نيكول إلى مالك وعلى وجهها ابتسامة متوترة ثم قالت: «هذا هو منزلي».

جال مالك ببصره لحظة في المدخل الواسع. ومع أن قصر بورتوتيرزا أصغر حجماً من معظم القصور الأوروبية، إلاّ أنه يتميز بطابعه وأناقته. بدت الباحة الرئيسية للقصر واسعة تحيط بها الأعمدة الرخامية الموشاة باللونين الزهري

www.elromancia.com

والذهبي، وكذلك هي الأرض الرخامية. كما بدا القصر من الداخل مضاءاً بأشعة الشمس الدافئة كما هو من الخارج. سمعت نيكول وقع أقدام، وما لبثت جويل أن ظهرت عند أعلى الدرج، وهتفت: «نيكوليت!».

وأسرعت تنزل الدرجات ثم ألقت بذراعيها حول أختها تحتضنها، وتهمس في أذنها: «ما الذي فعلته؟ لقد أخفتنا جميعاً».

أجابتها نيكول بصوت ضعيف: «لست أدري».

تراجعت جويل خطوة إلى الوراء، متفحصة وجه نيكول. ثم قالت: «هل ستتزوجين حقاً؟».

لم تعرف نيكول، أتضحك أم تبكي. واستدارت مشيرة إلى مالك: «جويل، ها هو العريس هنا».

واستغرقت فترة التعارف بين مالك وأفراد أسرتها طيلة المساء. إذ أقيم حفل استقبال للسلطان من قبل الملك رايمي والملكة أستريد، ومن ثم عشاء رسمياً حضره مستشارو الملك. ولم تسنح الفرصة لنيكول بالانفراد بمالك، إذ أبقاه جدها إلى جانبه بصرامة وعلى الدوام. وبعد أن رفعت الأطباق عن الطاولة وانطلق الجميع في أحاديث غير رسمية، جلست نيكول إلى جانب جدتها، وسألتها بنبرة متوترة: «هل أنت غاضبة مني، يا جدتي؟».

المرض الذي ألمّ بجدتها العام الفائت جعل من الصعب عليها أن تتكلم. إلاّ أنها ابتسمت لها قائلة: «كلا، أنا وجدك نعرفك جيداً».

صباح اليوم التالي، استيقظت نيكول وفي رأسها فكرة واحدة: لم تسمع أي خبر من شانتال مع أن موعد الزفاف بعد يومين فقط. أين هي الآن؟ لمَ لم تأتِ برفقة ليلي بعد؟ من المفترض أن تكونا هنا في هذا الوقت. أخبرها جدها أن شانتال قررت مغادرة لاكروا برفقة ليلي بالأمس، لتساعد نيكول في التحضيرات الأخيرة للزفاف. لكنها لم تصل بعد، ونيكول تحتاج إلى بعض الإجابات عن تساؤلاتها. إلاّ أن جدها لم يكن ذا عون كبير لها في هذا المجال. إذ نقل لها خبراً سيئاً حين قال وهو يشير إليها بالابتعاد عن باب مكتبه الخاص: «لم أشأ بالأمس أن أكدرك، لا سيّما

أنه اليوم الأول لوصول الملك نور إلى بلادنا. لكن يبدو أن أسرة ثيبوديت ترى أن ليس من الحكمة أن تسافر ليلي إلى مكان بعيد لفترة قصيرة من الزمن».

شعرت نيكول بالغضب يغلي في داخلها. وجاهدت لكي تبقي نبرة صوتها هادئة وهي تقول: «فليدعوها تبقى هنا لمدة أسبوعين إذن! لقد مرّت ستتان على مجيء ليلي إلى بورتوتيرزا.. ستتان.. ألست مشتاقاً لرؤيتها، يا جدي؟».

- تجعلين الأمر يبدو مأساوياً.

- أسرة ثيبوديت تتولى رعايتها، وشانتال لا تستطيع المشاركة في تربية ليلي. لقد دفعوا بشانتال إلى الهروب...

- هذا ليس صحيحاً، ولا أحب ما تتفوهين به.

ثم وقف جدها وانحنى فوق زاوية مكتبه، قائلاً: «لا تتكلمي بهذه الطريقة عن فيليب وكاترين. لقد عرفت أسرة ثيبوديت طيلة حياتي، كما أن كاترين وجدتك صديقتان منذ طفولتهما».

ابتلعت نيكول غصة تجمعت في حنجرتها: «ذلك لا يعني...».

لكنها قطعت كلامها حين توجه جدها نحو النافذة، وهو يسير ببطء مديراً ظهره إليها. لقد أصبح جدها هرماً، وكأنه كبر عشر سنوات خلال السنة الماضية، ولا يمكنها الضغط عليه أكثر من ذلك.

- سوف أحضرها إلى المنزل يا جدي. ليس عليك أن تحب ذلك، أو توافق عليه. لكن لا أحد يمكنه أن يمنعني.

١٠ - وانقلب السحر على الساحر

وجدت نيكول مالك في صالون القصر محاطاً بعدد كبير من ضباط الأمن.. يبدو أن معظم القادة الأوروبيين يحضرون زفافهما؛ ملوك وملكات، أمراء وأميرات، بالإضافة إلى عدد من الشخصيات ذات الألقاب من مستوى دوق ودوقة، وعدد من القادة السياسيين الرفيعي المستوى، وكبار الصناعيين ورجال الأعمال وأرباب عالم الموضة والأزياء.

شرحت له الوضع بسرعة، دون أن تغفل أي تفصيل؛ بسبب القوانين في لاكروا، لا تستطيع شانتال اصطحاب الأميرة ليلي، وهي وريثة التاج، إلى خارج بلادها، دون موافقة الملك والملكة. وأسرة ثيبوديت لن تسمح لليلي بالقدوم. كما شرحت له موقف جدها من هذا الموضوع، وكيف أنه يرفض القيام بأي مبادرة مع أنه الوحيد الذي يملك السلطة التي تسمح له بتحدي آل تيبوديت، وبعد أن أخبرته بكل شيء، شعرت بأن الثقل الذي كان يرزح فوق صدرها قد عاد من جديد، وشعرت بقلبها كأنه كتلة من الحديد.

إنها لا تريد أن تسبب الأذى لمالك أو أن تخذله، لكنها تعرف نفسها جيداً. فهي لن تنسى على الإطلاق سبب ذهابها إلى بَرَكة في الدرجة الأولى. بالكاد تمكنت من النظر إليه وهي تقول: «ذهبت إلى بَرَكة بهدف تحرير ليلي، وهذا هو السبب الرئيسي الذي دفعني إلى الإدّعاء بأنني شانتال. وذلك لإيجاد طريقة تمكنني من إخراج ليلي من لاكروا. لا يمكنني أن أتزوجك إذا لم تأتِ ليلي إلى هنا، لقد وعدتها بذلك».

لم يتفوه مالك بكلمة واحدة، وبدت تعابيره هادئة مستكينة كالعادة. وتابعت هي تقول: «أريدك أن تسعى لكي تعود إلى هنا من أجل زفافنا».

شعرت بجفاف في حنجرتها وبألم في عينيها فيما هي تكمل حديثها قائلة: «لا أريد أن أقول إنني لن أتزوجك، لا أريد أن أخذلك، لكنني أريد ليلي هنا. لطالما كان هذا هدفي منذ البداية وسيبقى كذلك».

- سبق وأكدت لك بأنها ستكون هنا.

- لكن ذلك حصل قبل..

- لم يتغير أي شيء، لقد أعطيتك كلمتي.

وجاء صباح يوم الزفاف، فاستيقظت نيكول بقلب مثقل؛ شانتال لم تصل بعد وكذلك ليلي. أما مالك، فلم تستطع أخذ جواب شاف منه. ما إن تسأله عن الأمر حتى يقول ببساطة: «أنا أقوم بكل ما يمكنني القيام به».

لكن ما هي النتيجة؟ ما الذي يقوم به في هذا الإطار؟ وما الذي لا يمكنه القيام به؟ وإذا كان قد عمل بجهد ليأتي بهما إلى هنا، فلِمَ لم تصلا بعد؟ كادت نيكول تصاب بالجنون، ليتها تستطيع أخذ طائرة في الحال لتحط في لاكروا وتختطف شانتال وليلي وتعود بهما إلى ديارهما! سمعت طرقة على باب غرفتها، ثم أطلّت جويل برأسها ذي الشعر الداكن قائلة: «أحضرت لك القهوة».

- ادخلي إذن!

كانت جويل تحمل في يديها كوبين من القهوة الساخنة بالحليب وسألتها: «ألم تنهضي من السرير بعد؟».

أرادت نيكول أن تتفوه بعبارة ساخرة، إلاّ أن عينيها امتلأتا بالدموع. تلاشت ابتسامة جويل وقد أدركت بالضبط ما الذي تفكر فيه نيكول، ثم قالت بنعومة: «سوف تكون شانتال هنا إذا استطاعت ذلك. لكن غيابها يجب ألاّ يفسد عليك يوم زفافك. إنه اليوم الكبير..».

- كلا، إنه ليس كذلك؟

ووضعت نيكول كوبها على الطاولة المجاورة، وتابعت تقول: «أنا لن أتزوج».

- نيكول!

- لا أستطيع القيام بذلك.

- نيكول، إنه رجل رائع. قد يكون هذا الزواج مدبّراً، لكن الرجل.. بالغ الوسامة..

وكانت تشير بيدها كأنها تجاهد لإيجاد الكلمات المناسبة، وتابعت تقول: «إنه مناسب لك تماماً».

- هذا لا يهم.

وانزلقت من السرير، فأخذت رداءها الأبيض القديم، وهو رداء من القطن الناعم تملكه نيكول منذ زمن طويل وهو المفضّل لديها، وتابعت تقول: «ولا تنظري إليّ هكذا، فمالك يعرف ذلك».

- أحقاً؟

أومأت نيكول ثم ابتلعت ريقها. فهي لم تكن واثقة من نفسها على مالك أن يعرف أنها جادة في ما قالته، فهي لن تتزوجه ما لم تكن ليلي في ميليو. هذا ما كان عليه اتفاقهما، هذا ما خططت له منذ البداية.

هبّت جويل واقفة على قدميها وقالت: «هناك خمسة شخص من أهم الشخصيات في العالم. سوف يغرق جدي وجدتي بالإحراج..».

- ما دام جدي يستطيع تجاهل مأساة شانتال، فبإمكانه تحمّل هذا الأمر أيضاً.

وسمعنا نقراً خفيفاً على الباب. وعندما فتحت نيكول الباب شعرت بقلبها يهبط بين قدميها؛ إنها مصمّمة الأزياء التي قابلتها في بَرَكة، وقد جاءت شخصياً لحمل ثوب الزفاف إليها. ذلك الثوب الذي تعرف نيكول تماماً أنها لن تلبسه.

- السلام عليكما.

قالت المصمّمة ذلك، ثم انحنت لتحييهما تحية تقليدية وهي تبتسم. حملت المرأة الكيس الذي يحتوي على الثوب إلى سرير نيكول، فألقته برفق هناك وراحت تبسطه بعناية، وهي تقول: «أظن أنك ستحبين هذا الثوب. بدا السلطان قلقاً خشية ألا يعجبك».

شعرت نيكول بتقلّص في معدتها، وكأن كمّاشة قبضت عليها. كان يجدر بها أن تتحدث إلى مالك هذا الصباح، لتخبره بأنها تعني تماماً ما قالته له، وبأن عليه أن

يلغي الإحتفال قبل أن يفوت الأوان. إلاّ أن مصمّمة الأزياء بدت مصرّة على إتمام مهمتها، ففتحت سحّاب الكيس وأخرجت منه ثوباً من الساتان الأبيض المصقول، ذا شرائط رفيعة عند الكتفين، وقبة محفورة بأناقة عند أسفل العنق، ينتهي خلف الركبتين بذيل طويل من الحرير الفاخر. وقد أضفى الذيل عليه طابعاً رومنسياً إذ زُيّن بشرائط من الساتان الأبيض على شكل فراشات، نثرت عليه كما يتناثر الثلج على الأرض.

همست جويل: «نيكول، إنه يشبه الثوب الذي رسمته.. دون أكمام، ذو شرائط على الكتفين، وقبة محفورة».

وافقتها نيكول، قائلة ببلادة: «ليس فيه لؤلؤ أو خرز، ولا قماش مخرّم».

جويل كانت على حق، إنه الفستان نفسه الذي رسمته نيكول في الليلة التي سبقت زفاف شانتال، وذلك حين كانت الأخوات الثلاث معاً. كانت جويل يومها في سن المراهقة، أي في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، أمّا شانتال فكانت الأميرة الناضجة حينها، أي في الرابعة والعشرين من عمرها، يومها رحنّ يتحدثنّ عن مستقبلهنّ، واقترحت شانتال أن تقوم كل واحدة منهنّ برسم ثوب الزفاف الذي تحلم به. كم يبدو ذلك اليوم بعيداً الآن! وكم تبدو الأمور مختلفة عمّا كانت عليه يومها!

قالت نيكول بنبرة مخنوقة: «يجب أن أتحدث إلى مالك».

انتظرت جويل بقلق فيما راحت نيكول تطلب رقم غرفة مالك، لكنها لم تلق جواباً. تركت نيكول الهاتف يرن ويرن إلى أن تم إقفال الخط بصورة آلية، وسمعت الإجابة التي عرفتها مسبقاً.. مالك ليس في غرفته.

قالت بنبرة ملؤها الذعر: «لم يبق على موعد الزفاف سوى أربع ساعات».

يجب أن تكلّمه قبل أن يذهب إلى أبعد من ذلك. لا يمكنها أن تقف أمام المذبح في الظروف الحالية».

قالت مصمّمة الأزياء محاولة جذب انتباه نيكول: «وهذا، يا سمو الأميرة، سوف يُثبّتُ لك النقاب».

استدارت نيكول وفغرت فاهها لرؤية التاج الماسي الذي تحمله لها المرأة، إذ لم ترَ قط عيناها أجمل منه على الإطلاق. إنه تاج طويل تُزَيّنه أقواس صغيرة بأناقة، ما جعله يبدو متموجاً كرمال الصحراء. وقد زُيّن كل من هذه الأقواس بماسة كبيرة بيضاء اللون ذات لون وردي، بلغ عددها تسع ماسات، بالإضافة إلى ثماني ماسات أصغر حجماً شكلت على شكل عش صغير في وسطه. أما أطراف الأقواس فزُينت بعدد من الماسات الدقيقة الوردية اللون.

- إنه مذهل!

شهقت نيكول بذلك بعد أن حبست أنفاسها لرؤية التاج الرائع الجمال المزيّن باللونين الوردي والأبيض. إلاّ أنها أعادت التاج إلى المرأة بيدين مرتجفتين، وهي تقول: «لا يمكنني الاحتفاظ به، إنه ثمين جداً.. من الواضح أنه إرث عائلي..».

- إنه تاج والدته. أحضرته لك اللايدي فاطمة بنفسها هذا الصباح.

استدارت نيكول مبتعدة، وهي تضع يدها على فمها لشد تأثرها. فاطمة، التي انتظرت مالك طيلة حياتها، هي اليوم هنا لتقدم الدعم لها! أضافت المصمّمة مبتسمة: «طلبت مني اللايدي فاطمة أن أذكرك بأن عروس السلطان يجب أن تحاط بالذهب والجواهر الثمينة وتُحمل إليه على هودج، لكن يبدو أنك تتجاهلين ذلك بطريقة ما».

فجأة، ضحكت نيكول وامتلأت عيناها بالدموع. فاطمة هنا.. أسرة مالك هنا.. كيف يمكنها أن تفسد هذا الزفاف؟ كيف يمكنها أن تترك مالك ينتظرها هناك أمام المذبح وبحضور خمسمئة شخص؟ يجب أن تتصل به الآن.

حاولت الاتصال به مرة تلو المرة، خلال الساعات الثلاث التالية، إلاّ أنها لم تتمكن من إيجاده. وبدا لها أن لا أحد يعرف عنه شيئاً. وأخيراً حان وقت القرار الحاسم: فإما أن ترتدي ثوبها وتذهب أو تتجاهل كل ما يجري حولها.

وقفت جويل في غرفة نيكول، مرتدية ثوب وصيفة الشرف ذا اللون الزهري الباهت، بعد أن أمضت فترة من الوقت وهي تذرع الردهة ذهاباً وإياباً، حتى لم يعد باستطاعتها التحمّل. وها هي الآن على حافة البكاء. قالت لأختها: «عليك أن

تستعدي، نيكول، وإلاّ سوف نتأخر. سوف يبدأ الاحتفال خلال نصف ساعة من الآن».

- لا أستطيع..

- بلى تستطيعين! عليك أن تفعلي!

وامتلأت عينا جويل بالدموع، قبل أن تتابع قائلة: «نيكول، لا أعلم سبب موقفك هذا، ولا أعلم إن كنتما قد تشاجرتما أنت ومالك، أم أنك تتعمدين التمهّل لسبب ما. لكن مالك أتى إلى هنا من أجلك. واهتم بنفسه بكل التفاصيل. إنه مهتم بك وهو يحبك. وأعرف أنك تحبينه أيضاً، فذلك يبدو واضحاً على وجهك».

لا يساورها أي شك في ذلك كما فكرّت نيكول، وقالت: «نعم، أنا أحبه. لكن.. ليس من المفترض أن يتزوجني أنا، وليس من المفترض أن نكون معاً منذ البداية. لقد أراد أميرة أخرى من آل دوكاس..».

- كلا.

قالت جويل ذلك وحملت ثوب الزفاف ثم راحت تهزّه أمام أختها قائلة: «ربما يكون ذلك صحيحاً، ربما أراد شانتال، لكنه وقع في حبك أنت. هيّا، ارتدي فستانك وضعي التاج على رأسك الأشقر العنيد هذا، وهيّا بنا نذهب. أنا أعرفك جيداً نيكول، فأنت لن تسامحي نفسك أبداً إذا ما سببت له الألم. أنت واقعة في حبه، ولا يمكنك أن تتحملي الشعور بأنك خيبت أمل من تحبين».

شعرت نيكول بارتجافة جليدية تسري في أوصالها، وبوخز في بشرتها. هذا ما يسبب لها الاستياء في الواقع. لقد وعدت شانتال بأنها ستحرر ليلي من أسر جديها.. لقد أعطتها كلمتها، ولن تسامح نفسها إذا ما خذلته. فوعد الحر دين عليه.

لكنك وعدت مالك أيضاً! أمن السهل عليك أن تخيبي أمله؟

وجاء صوت نيكول متقطعاً: «آه.. يا إلهي! ما الذي فعلته؟ وما الذي أفعله الآن؟».

شعرت بالنيران تستعر في صدرها، وبحرارة تسري في أنحاء جسمها، وقالت: «أنا أحبه. نعم أحبه.. ولا أريده أن يقف هناك في مواجهة الجميع وهو ينتظرني».

رمشت بعينيها، فتساقطت منهما الدموع، ثم سارعت تقول: «ساعديني يا جويل، لا يمكنني أن أتأخر أكثر».

كان الملك رايمي في انتظارهما في الباحة الخلفية للكنيسة. وما إن رأت نيكول جدها يقف متألقاً ببذلة التتويج الرسمية، تلك البذلة التي يرتديها فقط في الاحتفالات الوطنية والرسمية، تزين صدره الشرائط القرمزية اللون وميداليات الشرف، حتى كادت تفقد رباطة جأشها. انحنت إلى الأمام لتعانقه، فملأت خياشيمها رائحة عطر ما بعد الحلاقة الذي اعتاد أن يضعه طيلة حياته، وهو عطر قديم الطراز لكنه من النوع الفاخر، مثله تماماً، وهمست متأثرة: «جدي!».

بدت عيناه السوداوان مغشيتين بالدموع حين قال: «عزيزتي.. قولي لي إنك سعيدة».

- أنا أحب مالك.

- هذا ما أراه.

في تلك اللحظة سمع صرير أحد الأبواب السوداء في الكنيسة وهو ينفتح، وظهرت منه طفلة صغيرة في ثوب من الحرير الوردي اللون، تحمل في يدها باقة من الورود المنسّقة وقد انتشرت خصلات شعرها البني الناعم، الملتفة على بعضها، فوق كتفيها؛ وعلت ثغرها ابتسامة لطيفة، وهي تقول بصوت مرتفع ملؤه النعومة: «خالتي نيكوليت!».

إنها ليلي!

وهتفت نيكول: «صغيرتي!».

ثم ركضت نحو ابنة شقيقتها لتحملها بين ذراعيها وتؤرجحها في الهواء: «طفلتي الصغيرة ليلي، أنت هنا!».

غدت ابتسامة الطفلة فاتنة، وانقلب خجلها إلى سعادة غامرة وهي تقول: «أنا لست طفلة. يا خالتي نيكوليت! أصبحت في الرابعة من عمري، وأنا أتكلم

الفرنسية والإيطالية، كما أنني تعلمت التزلج على الثلج».

والتفّت ذراع حول خصر نيكول وهمس صوت أنثوي بالقرب من أذنها: «من الأفضل أن تكفّي عن البكاء، فليس من اللائق أن تسيري إلى المذبح بعينين محمرتين».

شانتال.. شانتال وليلي هنا! لم تستطع نيكول تصديق عينيها وهتفت: «ماذا.. كيف..؟».

عانقتها شانتال قائلة: «إنه جدي. أتى لزيارتنا هذا الصباح، وقال لفيليب وكاترين إنهما على الرحب والسعة في هذا الزفاف، وإنه يود حضورهما، لكن إذا لم يرغبا بالحضور فهو يريد أن آتي برفقة ليلي».

ثم هزّت كتفيها قائلة: «وها نحن هنا!».

- جدي قام بذلك؟

أومأت شانتال بالإيجاب: «حسناً، مالك هو من دفع تكاليف سفره. لا بد أنك تعرفين هذا، أليس كذلك؟».

كلا، إنها لا تعرف. فكرت نيكول بذلك وهي تجاهد لحبس دموعها. كان عليها أن تدرك أن هذا ما سيحصل، فمالك لا يتراجع عن كلامه مطلقاً.

لم تعرف نيكول كيف سارت في ممر الكنيسة الطويل، حيث زينت صفوف المقاعد بباقات من الأوركيد والورد. بدت الاحتفالات ضبابية بالنسبة إليها، مليئة بجمال غريب ساحر، كأنها في عالم من الأحلام.. ولم تستيقظ إلاّ عندما رفع مالك النقاب عن وجهها وعانقها، ثم همس في أذنها: «مرحباً، أيتها الشقراء».

علت الابتسامة وجهه، فبدا وسيماً، خطيراً، وجذاباً. ابتسامته تلك جعلت أوصالها تذوب أكثر فأكثر. لم تتخيل يوماً أنها ستتزوج أمير أحلامها، أو أنها ستلتقي بحبها الحقيقي فيما هي تدعي أنها شخص آخر. إنه أمر مستحيل، لا يصدق، كأنه نهاية قصة خرافية من قصص الأطفال.

حفل الاستقبال في فندق «بورتو بالاس» فاق كل وصف. وظل مالك ونيكول متلاصقين ببعضهما البعض طيلة الوقت. تناولا الطعام معاً، ورقصا معاً. وتعانقا

مراراً: جالا على طاولات الضيوف، وقطعا قالب الحلوى، ثم عادا إلى الرقص..
وبعد قليل شعرت نيكول أن عليهما المغادرة، فقالت: «فلنذهب من هنا. أمضينا هنا وقتاً كافياً. من المؤكد أننا نستطيع التسلل إلى الخارج».

عند منتصف الليل تدبرا، هي ومالك، أمرهما للخروج، إذ انسحبا بهدوء عبر أحد الأبواب الجانبية، وكانت إحدى سيارات الأسرة المالكة في انتظارهما. وعندما وصلا إلى القصر صعدا السلالم راكضين، فيما راحت نيكول تضحك بشدة لفرط سعادتها حتى إنها اضطرت إلى الاستناد إلى أحد الأعمدة الرخامية الطويلة لتتمكن من التقاط أنفاسها. مدّ مالك ذراعيه وأحاط بهما، ما جعلها محتجزة إزاء العمود، ثم قال: «مضى دهر منذ تعانقنا للمرة الأخيرة».

- لكننا تعانقنا بالأمس.

- هذا لم يكن عناقاً.

ومرّر شفتيه برقة على عنقها، «لا أشعر بمتعة العناق ما لم نكن وحدنا».

نبرة صوته المبحوحة أرسلت دفعة من الأدرينالين في داخلها، فأمسكت بربطة عنقه لتجره إلى جناحهما الخاص قائلة: «أظن أننا نحتاج إلى غرفة من أجل ذلك».

عندما وصلا إلى غرفتهما، استعاد مالك سيطرته على نفسه، وعلى الرغم من قلة صبره قرر ألاّ يستعجل الأمور.

اقترب منها ليعانقها، وقال بصوت أجش: «عزيزتي، أريدك أن تسامحيني».

- أسامحك.. من أجل ماذا؟

- لأنني طلبت مساعدة شانتال.

- لست أفهم.

رفع مالك ذقنها بيده، لينظر داخل عينيها. وقال: «أنا أحبك. لقد جعلت مني اليوم رجلاً كاملاً. أشعر أن حياتي اكتملت بحبك».

إن ما يقوله رائع. إلاّ أن نيكول شعرت بوجود شيء خاطئ، مع أنها كانت متعبة بعد أن أنهكتها الاحتفالات وجعلت أعصابها متوترة إلى حد لم تعد تستطيع معه تركيز أفكارها.

ما الذي فعلته شانتال؟ ما الذي فعله مالك؟ ولمَ يطلب إليها أن تسامحه؟ جرّها مالك من يدها وأجلسها على حافة السرير ثم جلس إلى جانبها قبل أن يقول بهدوء: «طلبت من شانتال أن تعرفنا إلى بعضنا البعض، وهذا ما فعلته».

- كلا! أنت طلبت الزواج منها، أرسلت لها تلك الرسالة...

وتوقفت عن الكلام بعد أن شعرت بموجة من الخوف تجتاحها. حاولت الوقوف لكن مالك منعها من ذلك. وضع ذراعه حول كتفيها قائلاً: «ابقي هنا، علينا أن نتحدث».

شعرت نيكول ببرودة جليدية تغمرها، فغدت أطرافها متصلبة كالرخام المصقول. جاهدت لتتمكن من الكلام، فقد أحسّت أن شفتيها متيبستان. وأخيراً تمكنت من القول: «تلك الرسالة التي أرسلتها إليها..».

وتوقفت قليلاً، ثم اندفعت واقفة على قدميها وهي تتابع قائلة: «ألم تكن تنوي الزواج بها؟».

- كلا. تلك الرسالة كانت مجرد طعم.

طعم؟ ها قد بدأت تفهم كيف تم الأمر؛ كانت تلك خدعة إذن! الرسالة نفسها كانت الخدعة. تراجعت خطوة إلى الوراء، ولم تعلم إلى أين ستذهب، وما الذي عليها أن تفكر به. هل قامت شانتال بخداعها؟ هل تآمرت مع مالك ضدها؟ هل قاما بالتخطيط لتلك التمثيلية معاً؟ أيُعقل أن يكون ذلك صحيحاً؟

- أنت لم ترغب مطلقاً في الزواج من شقيقتي!

- أنت المرأة الوحيدة التي أردتها، ورغبت بأن أتزوجها.

١١ ـ نمرة في القصر

وقفت نيكول مذهولة بما تسمعه، وهي تفكر كم بدت سخيفة في الأسابيع الثلاثة الماضية. كان مالك يعرف أنها نيكوليت منذ اللحظة التي رسا فيها اليخت في ميناء بَرَكة. كان يعلم أن الأميرة القادمة إلى أتيك ليست سوى نيكوليت، وليست أي أميرة أخرى من أسرة دوكاس. . كانت تلك مجرد خطة لجعلها تقف إلى جانبه أمام المذبح، وملء خزائن أسرة دوكاس بالمال.

واختفت البرودة الجليدية من وجهها لتحل محلها حرارة حارقة، فعلا الاحمرار خديها وشعرت بالارتباك والخجل. هنا، في هذا القصر نفسه، شعرت منذ أسابيع خلت بالشهامة، فاتخذت قرارها عن قناعة تامة. قررت أن تقوم بالتضحية بنفسها من أجل سعادة شانتال وليلي. والآن، ها هي تكتشف أن الأمر لم يكن سوى خدعة. كيف استطاعت شانتال أن تفعل ذلك بشقيقتها؟

استلقى مالك على السرير، وراح يراقبها وهي تذرع الغرفة باهتياج، ثم قال: «أنت غاضبة!».

- بالطبع.

ونظرت إليه بعينين مذهولتين؛ إنه ماكر، متلاعب، وزير نساء. آه، يا إلهي! لقد تزوجت رجلاً من الصنف الذي أقسمت أن تتجنبه!

قال مالك وقد طوى ذراعيه تحت رأسه: «شانتال فعلت ذلك كي تساعدك».

رغبت بأن تقول له: اخرس! وبدلاً من ذلك قالت: «الزواج لن يساعدني».

- سوف يساعد بلادك.

نعم، ميليو سوف تحصل على المال، على مستثمر قوي يعمل على إنمائها، كما

سيكون لها بمثابة دعم معنوي يبعد الطامعين عن أراضيها. وتابع مالك يقول دون أن يبدو عليه الشعور بالندم: «قالت إنكنَّ وافقتنَّ جميعاً على القبول بزيجات تساعد على تحسين اقتصاد بلادكنَّ ودعم موقفها».

لم تعد نيكول تستطيع الاستماع إليه. لقد خدعاها كلاهما. فهما يعرفان أنها لم تكن راغبة في الزواج، لكنهما تجاهلا رغبتها، وقناعاتها، ودفعاها إلى تحقيق غاياتهما.

وسألته: «هل جاءت شانتال إليك، أم أنت من جاء إليها؟».

ابتسم مالك وقد وجد سؤالها مؤثراً: «حاولي أن تعرفي بنفسك من هو الوغد في هذه المسألة».

ردّت بوجه عابس: «كلاكما وغد. لكني أريد أن أعلم فكرة من كان هذا. . الزواج الزائف».

تجهمت تعابير وجهه وقال: «إنه ليس زائفاً. إنه زواج حقيقي، شرعي، مكتمل، ودائم».

- لم تجبني عن سؤالي.

هزَّ مالك كتفيه، كما لو أن الجواب واضح: «أنا ذهبت إليها بعد أن قمت بزيارة إلى جدك».

انفرجت شفتاها بذهول: «قمت بزيارة جدي؟ أهذا ما فعلته في البداية؟».

- بالطبع! إنه الملك، ولا أحد سواه يمكنه أن يعطيني الموافقة للزواج بك.

يا للسخافة!

- وماذا عن موافقتي أنا؟ ماذا عن إرادتي الحرّة؟

شعرت نيكول بالصدمة عندما أدركت أن جدها شارك أيضاً في ذلك كله. بدا وكأن المملكة بأسرها أرادت أن تستقر نيكوليت عن طريق الزواج، وتنجب الأطفال.

راح مالك ينقر بأصابعه على السرير نقراً خفيفاً وهو يقول: «أنت أتيت إلى بَرَكة بكامل إرادتك».

- لأنني ظننت أن بإمكاني العودة ساعة أشاء! ظننت أنني سأمضي أسبوعين هناك بشعر بني، فأحضر عشاء رسمياً أو أكثر، وهكذا.. ثم أذهب إلى باتون روج حيث أجد شانتال وليلي في أمان، وأعود بعدئذٍ إلى ميليو حيث أستعيد شعري الأشقر وحياتي المفضلة.

جلس مالك في السرير ودفع بالغطاء جانباً وهو يقول: «أنت ترتجفين. ما من سبب يجعلك ساخطة على هذا النحو. تعالي إلى السرير، يا عزيزتي».

لم تعد نيكول تستطيع النظر إليه؛ تلك التعليقات التي كان يتفوه بها عن شقيقتها «نيكوليت»، تلك الإطراءات على شعرها البني الرائع، تلك الملاحظات الساخرة عن النساء الشقراوات.. كانت من قبيل التسلية لا أكثر. لا بد أنه كان مستمتعاً بما يقوم به. لقد خطط لذلك كله، خطط لكل صغيرة وكبيرة.

- لا أستطيع!

غدا صوته منخفضاً وهو يقول: «بل تستطيعين. وهذا ما ترغبين به».

- لا يمكنك أن تجبرني. لم أسمح لك بذلك من قبل، ومن المؤكد أنني لن أبدأ الآن.

وأدركت أنها ترتجف ثم تابعت تقول: «لا أصدق أنني كنت بهذا الغباء. كنت بلهاء حقاً!».

- لا شيء تغير.

- لا شيء؟

انفجرت بذلك، وهي تستدير لتواجهه بعينين متسعتين مصدومتين. كيف يمكنه أن يقول إن شيئاً لم يتغير؟ علاقتهما بمجملها ليست سوى... كذبة!

- لم أكن أعرفك حتى... مالك نور. ظننت... ظننت...

- ماذا ظننت؟ أنني أبله... أنني مجرد رجل آخر يجري وراءك ككلب مدلّل؟

- لم أتعامل مع أي رجل على هذا النحو!

- بل أنت حسبت الرجال كلهم كذلك. استخدمت جمالك لإغوائهم، فسحرتهم وجعلتهم تحت سيطرتك. وأنا أردتك لي، وأدركت أن عليّ أن أخاطر

كي أفوز بك. لا يحق لك أن تغضبي لأنني استخدمت معك لعبتك نفسها.

اللعنة على ذلك كله! هكذا فكرت نيكول وهي تغالب دموعها. لكنه على حق بالتأكيد. فلهذا السبب بالذات، تشعر بالغضب منه ومن نفسها. ظنت أنها تستطيع الاستمرار في تمثيليتها، وتوقعت أن تخرج منها دون دفع أي ثمن، وبدلاً من ذلك وجدت نفسها متزوجة، ومضطرة لقضاء بقية حياتها في بَرَكة.

- ما فعلته ليس عملاً شريفاً.

انفجرت بكلماتها هذه، بعد أن اجتاحتها موجة من الانفعالات لا نهاية لها. إنها الآن متزوجة.. متزوجة! وكل ذلك ليس سوى.. خدعة. لقد احتال عليها مالك وخدعها.. أجبرها على الزواج به، وهو يعلم تماماً بأنها تخشى من الارتباط. لقد وجد طريقة ليقودها إلى المذبح ويتزوجها.

أجابها مالك بصوت هادئ: «ما كنت تقومين به أنت ليس كذلك أيضاً».

ولم يبدُ عليه التأثر مطلقاً بفورة غضبها، بل تابع يقول: «ومع ذلك لم ألُمكِ بل عذرتك وفهمتك. فأنت تعشقين المنافسة وتسعين للفوز».

- لم أكن أسعى للفوز مطلقاً.

- عزيزتي! المسألة كلها تدور حول من سيفوز في النهاية.

لم تعد رؤيتها واضحة مطلقاً، وقالت: «نعم، لكن مقابلة الخطأ بالخطأ لا تؤدي إلى الصواب».

- كنت أنوي أن أخبرك بالحقيقة.

سألته وهي تسير باتجاه السرير: «متى؟ لا أذكر أنك حاولت ذلك أبداً».

- كلا، لم أعترف لك بالحقيقة، لأنني قررت أن أخبرك بها ما إن تخبريني أنت بحقيقتك. لكنك لم تفعلي، ولم أفعل أنا أيضاً.

وبدت على وجهه ابتسامة أشبه بابتسامة قطة حصلت على صحن من الكريما، وتابع يقول: «نيكول، عزيزتي. أنت أردتني لك، وها أنا أصبحت لك إلى الأبد».

ساورتها رغبة بأن تحمل إحدى الوسادات وترميها في وجهه المبتسم. إلاّ أنها قالت: «لم أكن أرغب بالزواج».

- لكن طالما أنك تزوجت، ألست سعيدة لأنك تزوجتني أنا؟

- لم يكن هذا هدفي، يا جلالة الملك.

- بعض الأهداف تصبح بلا قيمة مع الوقت.

وهزّ كتفيه دون مبالاة، فبدا جذاباً ومعتداً بسلطته، ثم تابع يقول: «نحن الآن متزوجان، وكل منّا يحب الآخر. سوف نتمتع بحياتنا معاً، بالتأكيد».

- لن يحصل ذلك بعد الآن.

واستدارت مبتعدة وهي تشعر بتقلّص في معدتها. لم تعد تستطيع الاحتمال.. طيلة ذلك الوقت، تلك الأسابيع.. تلك اللحظات التي أمضتها بين ذراعيه..

- كم كلفك الزواج بي؟

همست بذلك ونظراتها مركّزة على الأضواء اللامعة للميناء. لم يتحرك مالك من السرير، وأجاب: «كثيراً».

ابتلعت ريقها بصعوبة وعادت تسأله: «كم كلفك بالتحديد؟».

- خمسة وعشرين.

- خمسة وعشرين...؟

- مليون.

- من الدولارات؟

وشعرت بالاختناق، فاستدارت تحدّق به غير مصدّقة: «قل لي إنها ليست خمسة وعشرين مليون دولار».

- إنها ليست خمسة وعشرين مليون دولاراً بل خمسة وعشرون مليون جنيهاً. مصرفي في لندن سيقوم بعملية التحويل.

جلست نيكول على عتبة النافذة ببطء. شعرت ببرودة الزجاج تلسع ظهرها. وقالت هادئة: «هكذا إذن!».

شعرت أنها مدمّرة تماماً؛ إنها زوجة كلفت ثروة طائلة، هذا دون ذكر ممانعتها الشديدة.

- بالإضافة إلى خمسة وعشرين مليوناً أخرى سيتم دفعها ما إن يبلغ طفلنا الأول الخامسة عشرة من عمره.

لم تعد تستطيع التحمّل.. لا تستطيع أن تصدق أن أحداً يمكنه إنفاق هذا المبلغ من المال... حتى لو كان يريد زوجة متحدرة من أسرة مالكة. وسألته، محاولة التخلي عن تحليل الوقائع: «وماذا يعني سن الخامسة عشرة؟».

- عندما يبلغ طفلنا الأول - سواء كان بنتاً أم صبياً - سن الخامسة عشرة يصبح بإمكانه أن يتولى العرش دون حاجة إلى وصي. وهذا أمر هام عندنا. فغالباً ما يحاول الوصي التحكم بالسلطة، لذا فإن سن الخامسة عشرة غاية في الأهمية.

شعرت نيكول بالحرارة تحرق عينيها. تنفست بحذر، رافضة أن تسمح لدموعها بالتساقط، ثم سألته: «وهل تخطط للذهاب إلى مكان ما بعد خمس عشرة سنة؟».

- كلا.

- فهمت.

لكنها في الواقع، لم تفهم شيئاً على الإطلاق حتى الآن. وقفت بهدوء، ونظرت حولها باحثة عن رداء تضعه على جسمها بعد أن قرصها البرد. إلاّ أنها لم تجد سوى ثوب زفافها المرمي على الأرض. حملته بصمت وهي تغالب دموعها خشية تساقطها، يا لها من نهاية فظيعة ليوم رائع!

-أهذه رسالة؟

سألها ذلك بهدوء، بعد أن فقدت نبرة صوته كل أثر للمرح. ابتلعت نيكول دموعها، فلم يعد يهمها إن كان يراقبها أم أنه ينظر إليها بمزيج من القلق والتفهم. يمكنه الإدعاء بأنه يفهمها.. يمكنه الإدّعاء بأنه يهتم لأمرها..

ارتدت ثوبها بسرعة، ثم قالت: «أفضل النوم لوحدي الليلة».

- ما من سبب يدعوك لذلك...

قاطعته بشراسة: «بلى».

إلاّ أن ارتجاف شفتيها أفسد عليها موقف التحدي هذا، وتابعت تقول: «أشعر

بالإهانة والغضب. سوف أذهب إلى غرفتي القديمة، فأنا أحتاج إلى الانفراد بنفسي».

- لماذا؟

- يجب أن أفكر بالأمر.

وقف مالك ببطء، ثم قال: «ذلك سيجعلك تشعرين بالسخط أكثر فأكثر».

- هذا محتمل.

- لكن إن كان هذا ما تريدينه..

- هذا ما أريده.

لم يقترب منها، ولم يحاول معانقتها، بل توجه إلى الحمام قائلاً: «تصبحين على خير».

«إنه أسوأ زواج في التاريخ» قالت نيكول ذلك لنفسها مئات المرات، وهي تغالب دموعها طيلة الليل، لم تتمكن من النوم ولم تعرف طعم الراحة ومع ذلك كانت تشعر بأنها متعبة إلى حد لا تستطيع معه مغادرة السرير والقيام بأي شيء آخر. وأخيراً، أطلّ الصباح وسحبت نيكول نفسها من السرير لتأخذ حمامها الصباحي. ثم ارتدت بنطلون جينز بالياً، هو أبعد ما يكون من ملابس الأميرات، بالإضافة إلى بلوزة من القطن ذات لون زهري وكمين قصيرين. ذكرها اللون الزهري ببقة الورود التي كانت تحملها بالأمس، فشعرت بوخز في عينيها. إنها غلطتها منذ البداية!

حسناً، شانتال ومالك مخطئان أيضاً!

دخلت شانتال غرفة نيكوليت فيما كانت هذه الأخيرة تتململ خفين من الجلد.

- أخبرتني إحدى الخادمات بأنك أمضيت ليلتك هنا.

قالت شانتال ذلك وهي تلقي نظرة سريعة على سرير نيكول، وسرعان ما لاحظت أن الغطاء قد تجمع على جهة واحدة منه، وتابعت تقول: «هل نمت وحدك؟».

- يسرني أن الخادمات ما زلن يزودن الجميع بالمعلومات.

أجابت نيكول بذلك وهي تقف، إذ لم تكن في مزاج يسمح لها بالكلام. فهي تشعر بألم في قلبها، وتشعر أنها.. استغلت.

جلست شانتال على مقعد مجاور للنافذة، واضعة إحدى رجليها فوق الأخرى بأناقة: «أنا آسفة، نيكول».

أبعدت نيكول نظراتها، وهي تجاهد لحبس الكلمات الغاضبة التي تبادرت إلى ذهنها. إنها لا تريد أن تتشاجر مع شانتال، لا سيّما أن شانتال لم تكد تهنأ بتحرير ليلي من سيطرة أسرة أرماند في لاكروا.

جاء صوت نيكول مبحوحاً وهي تقول: «كان يجدر بك أن تخبريني بالأمر».

- كان الأمر سرياً.. قليلاً.

- قليلاً؟

علا الاحمرار خدي شانتال، وقالت: «لكنني عرفت أنك ستحبينه. أعرف النوع الذي يستهويكِ من الرجال. أردت فقط أن تتقابلا أنتما الإثنان. فكرت أنك ستعجبين به، وهذا ما حصل. وكنت واثقة من أنك لن تتزوجي به ما لم ترغبي بذلك حقاً».

زفرت نيكول أنفاسها بسرعة قائلة: «لكننا اتفقنا ألا تقومي بدور مدبّرة الزواج بالنسبة إليّ».

قالت شانتال وهي تسير باتجاه الباب: «أنظري إلى المسألة برمتها لدقيقة واحدة وفكري بالأمر. أنت لم تنقذي بلداً واحداً فقط بل اثنين؛ ميليو تحتاج إلى أموال الملك نور، لكن الملك نور يحتاج إليك».

فكّرت نيكول ساخطة وهي تخرج من الحمّام أن الملك نور لا يحتاج إليها مطلقاً. إنه يحتاج إلى مصاهرة أسرة مالكة ويحتاج إلى ورثة. وعلى الأخص ورثة. لكنه لا يحتاج إليها بالذات. وهكذا فإن أي أميرة في سن الخصوبة تفي بالغرض.

خرجت من غرفتها قاصدة بركة المياه، مجتازة أرض القصر. مرت بين حدائق الورود، والحدائق الدائمة الخضرة. إلاّ أن نيكول لم تحفل بأي من تلك الأزهار الرائعة الجمال، أو بأشعة شمس الصباح الشاحبة التي تلتمع فوق صفحة المياه. بل

كانت أفكارها مشغولة بمالك وبخدعته تلك، بشانتال التي أوقعتها في شباك الزواج.. وفكرت أن كليهما موضع احترام وثقة لديها. لا يمكنها أن تصدق أن ذلك ما حصل! لا يمكنها أن تفهم الأمر!

لِمَ لم تقدمهما شانتال إلى بعضهما بطريقة عادية في إحدى الحفلات مثلاً؟ كأن تقول: نيكوليت، هذا هو الملك نور، سلطان بَرَكة، أعتقد أنكما سوف تنسجمان معاً..

ورفست حصوة صغيرة بقدمها، وراحت تراقبها وهي ترتفع وتسقط على الأرض. ورفستها مرة أخرى، إلاّ أن الضربة جعلتهاهذه المرة تطير عالياً فترتفع فوق حائط السياج الحجري وتسقط في الميناء نفسه. وسمعت صوتاً ذكورياً يقول متشدقاً: «يا لها من ضربة موفقة!».

استدارت نيكول لترى رجلاً مرتدياً بنطلون جينز وكنزة من الكشمير ذات قبة عالية، يتكىء على السياج. رمقته نيكول بنظراتها من الأعلى إلى الأسفل، فوجدت أنه شاب ذو جسم ممتلىء، وأدركت من شكل كتفيه وذراعيه أنه يتمتع بعضلات قوية. قالت وهي ما تزال تشعر بالسخط: «أنا معتادة على لعب كرة القدم».

- أراهن أنك لاعبة جيدة.

- إني كذلك.

لكنها لم تكن في مزاج يسمح لها بالتحدث إلى أي كان، فهي ناقمة وتشعر بالسخط من الجميع، ولا سيّما من الرجال. ولم تكن لديها رغبة بأن تكون لطيفة مع أي شخص، ما جعلها تتوق إلى الابتعاد عن الرجل، فقالت: «أتمنى لك يوماً سعيداً».

إلاّ أن صوته عاد فأوقفها حين قال: «إنه أمر رائع، أن تتمكني من إعادة الحياة إلى رجل ما».

ماذا؟ ما الذي يقوله؟ التفتت نيكول إليه، وعلى شفتيها تساؤل ورهبة. وفي تلك اللحظة فقط لاحظت أن هذا الرجل الغريب يتكلم مثل مالك، فلديه نبرة الصوت نفسها، وخشونته نفسها. إلاّ أن لكنته تميل أكثر إلى الإنكليزية الأصلية

منها إلى لغة الصحراء. كما أنه أسمر البشرة مثل مالك أيضاً، إلا أن عينيه ذات لون ذهبي يميل إلى لون العنبر، أما تعابير وجهه فأكثر قسوة وأكثر هزلاً. ومع أنه يرتدي بنطلون جينز، إلاّ أنه يبدو متحدراً من أصل ثري.

أخذ الرجل نفساً من سيجارته، واحتبس أنفاسه إلى حين. ثم أدار السيجارة لينظر إلى رأسها المشتعل وأطلق أنفاسه في الهواء، قبل أن يرمي السيجارة ويطفئها وهو يقول: «فهمت أنه لم يخبرك عن.. محاولة الاغتيال».

- من؟

رفع الرجل حاجبه باستهجان، قائلاً: «الملك مالك نور».

سارعت نيكول إلى جمع أفكارها قائلة: «هل أنت قريب له أم...».

- أنا شقيقه الأصغر.

إنه خالد! أدركت ذلك صامتة وقد فهمت سر تشابههما. وسألته: «هل أتيت لحضور حفل الزفاف؟».

ضحك الرجل قائلاً: «كنت إشبين العريس».

- أنا لم...

- لم تريني. أعرف ذلك. فعيناك لم تريا سوى شقيقي.

ونظر إليها للحظة طويلة: «أقدم لك تهاني بالزواج. أظن أن ذلك يجعلنا أسرة واحدة».

أومأت نيكول هي تشبك ذراعيها فوق صدرها. إنها ما زالت غاضبة ومجروحة المشاعر وسألته: «ماذا تعني بحديثك عن تلك المحاولة؟».

التقت نظرات عينيه الذهبيتين بعينيها، وقال: «محاولة الاغتيال التي تعرض لها السنة الماضية».

يبدو أن هناك الكثير من الأمور الهامة التي لم يخبرها مالك بها. وضعت نيكول يدها فوق معدتها وقد شعرت بغثيان مؤلم. أحدهم حاول أذية مالك.. مالك حبيبها!

- قام مالك بطمس هذا الخبر تماماً.

ثم تابع يقول بهدوء، وكأن ما يقوله ليس له أهمية: «قام العملاء السريون في بَرَكة باعتقال الرجل الذي أطلق النار على مالك. أما هو فتصرف كأن شيئاً لم يحصل. إلاّ أن شيئاً ما فيه تغير بشكل واضح، إذ لم يعد هو نفسه على الإطلاق».

توتر فكّا خالد، وللمرة الأولى أدركت نيكوليت أن موقف خالد الشهم يخفي وراءه أواصر قوية تربطه بأسرته. وتابع خالد يقول محدثاً، مع أن نظراته الذهبية غدت أكثر قسوة وغضباً: «مررت بأوقات، فكرت فيها بالعودة إلى أتيك وارتداء العباءة من جديد. مالك لن يخبرك بالأمر، لكن محاولة الاغتيال تلك قتلت شيئاً في داخله، كأنها سرقت روحه. وأدرك بعدئذٍ أن عليه أن ينهض بأعباء المسؤولية الملقاة على عاتقه، إنه واجبه».

«واجبه» تردّد صدى تلك الكلمة بصمت داخل رأسها، وكأنها تسمع صوت مالك وهو يتحدث عن الواجب والخيارات والمسؤولية في سياق الأحاديث التي دارت بينهما.

تراجعت عدة خطوات إلى الوراء، ثم اتكأت على الجدار الصخري المنخفض، وراحت تحدّق إلى المياه. ثم قالت: «لا أظنه كان سيخبرني بذلك».

أجاب خالد بهدوء: «على الأرجح، لا. إنه ملك».

شعرت نيكول بخشونة الحائط تؤلم أصابعها. نعم، إنه ملك، لكنه أيضاً رجل، ورجل عظيم. واعتصر الألم قلبها؛ يجب أن يخبرها مالك بالكثير من الأمور. ابتعدت عن الجدار وقد ازداد سخطها، ثم قالت: «يجب أن أعود».

انحنى رأس خالد المكسو بالشعر الأسود، وقال: «سوف يبدأ بالقلق عليك».

أحسّت بوخزة من الألم، وكأن كلام خالد ساعدها على تنفيس غضبها. كيف أمكنه أن يعرف نقطة ضعفها بهذه السرعة؟ إنها تحب مالك ولا تريده أن يشعر بالقلق، لا سيّما عليها. فهي لا تريد أن تضيف عبئاً إلى أعبائه أو تخلق له المزيد من التعقيد في حياته. إنها تريد مساعدته.. تريد حمايته.. تريد حبه.

هزّت رأسها وهي تجاهد كي تبتسم، لكنها لم تستطع. فهي لم تشعر من قبل بقلبها محطماً على هذا النحو. منذ أقل من ثلاثة أسابيع، التقت مالك للمرة

الأولى، والآن لا يمكنها أن تتخيل حياتها من دونه.

- هل سنراك مرة أخرى قبل عودتك إلى لندن؟

علت وجه خالد ابتسامة مهذبة وهو يقول: «أشك في ذلك. ليحفظكما الله».

- وليكن الله معك أيضاً، يا سمو الأمير خالد.

بدأت نيكول رحلة العودة إلى القصر عبر ممرات الحديقة المرصوفة بالحجارة وسمعت صوت خالد يناديها: «جلالة الملكة...».

توقفت نيكول عن السير، والتفتت من فوق كتفها لترى أن خالد ما زال متكئاً على الحائط الحجري، وتابع يقول: «لا أدري ما قاله لك، لكن الملك يحب الشقراوات».

ثم ابتسم فالتمعت أسنانه البيضاء: «لم يكن ليتزوج من سمراء مطلقاً».

لوحت نيكول له مودعة، وهي تمنع نفسها من الابتسام. يا لهذه الأسرة! كيف أمكنها أن تتزوج أحد أفرادها؟ كيف أمكنها أن توافق على الزواج من أي كان بعد أسابيع ثلاثة فقط؟ صعدت سلالم القصر، وتوجهت إلى جناح الضيوف الذي أعطي لهما كجناح عرائس. لم يكن الباب مقفلاً، فولجت نيكول من المدخل الكبير إلى غرفة الجلوس الأنيقة ثم إلى غرفة النوم. كان مالك ما يزال في السرير، وهو يتناول إفطاره.

ارتمت على كرسي مواجه للسرير قائلة: «مرحباً».

رفع مالك بصره ونظر إليها من فوق الجريدة التي كان يقرؤها. كان يضع نظارتين وإلى جانبه على السرير، صينية عليها كرواسون طازج وعصير وقهوة.

- صباح الخير يا زوجتي العزيزة.

- أنت على حق، أنا لا أحب الخسارة، ظننت...

استنتج قائلاً: «بأنك ستكونين الفائزة».

رفع نظارتيه عن عينيه وتابع: «لكنك فزت حقاً. لقد حصلت عليّ، وأنت تعرفين أنني أحبك».

كوّرت نيكول يديها، وقالت: «كنت تعرف أنني أخشى من الزواج. إذ لم تكن

فكرتي عن الزواج جيدة على الإطلاق».

ابتسم لها مالك مبدياً تعاطفه. وكانت تلك غلطة منه، إذ قالت: «الأمر ليس مضحكاً، يا مالك. من الخطأ أن يجبر أحدٌ النساء على الزواج».

- كم بالأحرى الأميرات اللواتي يتمتعن بالجاذبية والشعبية!

وافقته بحرارة: «نعم، بالضبط».

- لكنني أردت الزواج بك.

- لا تتم الأمور على هذا النحو.

- بلى، إذا ما وجد المرء رفيق روحه.

شبكت ساقيها وهزت رأسها وهي تفكر أنه بالغ الثقة بنفسه إلى حد لا يمكن تصديقه. وأجابته بصوت خشن: «لكن عليه أن يكون صادقاً مع رفيق روحه. كان يجدر بك أن تخبرني الحقيقة...».

- كما أخبرتني أنت الحقيقة؟

ثم وضع مالك جريدته جانباً، وقال: «هيّا نيكول، المسألة لا تتعلق بالصدق والشرف، إنها مسألة سلطة، تحكم وسيطرة، أنت غاضبة لأنني تفوقت على ذكائك».

- أنت لم تتفوق على ذكائي.

- بل فعلت. وأنت لست خاسرة.

ثم دفع بالأغطية جانباً ونزل عن السرير وهو يقول: «أنا أكره الخاسرين الذين يتنحبون».

لم يكن يرتدي سوى بنطلون البيجاما القصير، وبدا شديد الوسامة. فهمست: «أنت تغش، لا يمكنك أن تتجول حولي شبه عارٍ فيما نحن نتشاجر».

تجاهل مالك كلامها ورفعها لتقف على قدميها، مقرباً المسافة بينهما. وتنهدت نيكول، وقالت لاهثة: «ما زلت تغش».

قال: «لم أرَ في حياتي شخصاً لديه هاجس الفوز مثلك. لكن كل شيء مباح في الحب والحرب. أريدك أن تعلمي، ليل، أنني قد أقوم بأي شيء لأمنعك من الهرب

مني».

- لكن، لماذا، مالك؟ لِمَ أنا بالذات؟

توقفت يداه فوق خصرها، وأخفض بصره لينظر إليها ملياً وقد غدت تعابير وجهه أكثر شراسة. وقال: «أنا رجل واقعي وعملي. على الرغم من معرفتي بأنك لست مهتمة بالزواج، كنت معجباً بنزعة الاستقلالية لديك. أردت علاقة تحقق لك المساواة...»

- لكن ما الذي فعلته أنت؟

قاطعها مالك قائلاً: «أعلم أنه إذا ما حصل لي مكروه، فأنت ستقفين إلى جانب أولادنا مهما كانت الظروف صعبة. لا يمكنني أن أتخيل امرأة أخرى أماً لأولادي. لم أخترك بسبب الجمال أو اللقب بل بسبب احترامي لك».

شعرت نيكول بعينيها تحترقان وكأن النيران تستعر فيهما ما اضطرها إلى النظر بعيداً.

- من المؤكد أن هناك نساء أفضل مني في بَرَكة.

- أردت زوجة لا ترهبها السلطة والسياسة. وأنت لست فقط مجرد أميرة تعرف الواجب وتفهمه، بل إنك درست الرياضيات والعلوم، وسافرت كثيراً. والأهم من ذلك كله أنك أحببت بلادي وعشقت عاداتها.

أحسّت نيكول بتصلب في حنجرتها، وأزعجها ذلك. جاهدت كي تبتلع ريقها، فرفعت ذقنها كما اعتادت أن تفعل غالباً. وقالت: «تعرضت لمحاولة اغتيال في السنة الماضية».

نظر إليها مستغرباً وقال: «لم يعلم أحد بذلك».

- لكن أسرتك عرفت.

ضاقت عيناه، وتفحصتها نظراته للحظة طويلة، ثم قال معلقاً: «خالد لا يحق له بذلك».

اللعنة على هؤلاء الرجال المتغطرسين! إنهم متشابهون سواء كانوا ملوكاً أم سلاطين. كل ما يهمهم هو سمعتهم. حدّقت به ملياً، ثم قالت: «إنه يحبك مع أنني

www.elromancia.com

لست أدري لماذا».

رفع مالك يديه وطوّق بهما وجهها، ثم قال: «انتظرت سنوات طويلة قبل أن أتزوج. ظننت أنني لن أجد يوماً المرأة المناسبة.. إلى أن وجدتك، وأدركت في أعماقي بأنك المرأة الوحيدة التي خلقت من أجلي».

ضغطت نيكول بقبضتيها على صدره، فشعرت بقوة عضلاته وصلابتهما. بدت بشرته دافئة معطرة، وأرسل قربه منها الإثارة في حواسها. وسمعت نفسها تقول: «ألديك فكرة عن مقدار حبي لك؟ أتدرك أن حياتك هي أغلى ما لدي؟».

وشعرت بقلبها ينسحق في داخلها.

- لا أريد أن يتسبب أي شخص لك بالأذى.

همست بذلك، مدركة الحمل الثقيل الذي يرهق كاهله، متفهمة الحب الكبير والتعاطف الذي يشعر بهما إزاء شعبه. وتابعت: «لا أريد أن يأخذك أي شخص مني».

- أنا أيضاً لا أريد أن يأخذني أي شخص منك، لكن إذا ما حصل ذلك، يا عزيزتي، أعرف أنك ستكونين في القصر كالنمرة. وسوف تقاتلين بشراسة من أجل أولادنا، وتقومين بكل ما هو ضروري لحمايتهم...

لفّت نيكول ذراعيها حول عنقه، ودفنت رأسها في صدره قائلة: «لن يحدث لك أي مكروه. لن أسمح بحصول ذلك مطلقاً، فأنت نصفي الآخر. وإذا ما منحنا الله أولاداً، يغدو لزاماً عليك أن تلتصق بي وبهم لتساعدني على تنشئتهم. هل هذا مفهوم؟».

- وهل هذا أمر؟

- إنه أول مرسوم تصدره الملكة نيكوليت نور، ملكة بَرَكة.

ضحك مالك بنعومة، وراح يتأملها وأشعة شمس الصباح تضيء وجهها، ثم قال: «نعم، يا حبيبتي نيكوليت».

ثم أحنى رأسه وعانقها عناقاً أرسل رعشات رائعة في كيانها. وعندما رفع رأسه، ظهرت على وجهه ابتسامة ضعيفة، ثم قال: «والآن، أيتها الملكة نور،

زوجك الملك، وسلطان بَرَكة يطلب منك أن تنضمي إليه في السرير».

علا الاحمرار وجه نيكول، أما مالك فراح يجاهد ليمنع نفسه من الضحك. لم تعرف نيكول أكان عليها أن تشعر بالسرور أم بالرهبة. انحنى مالك ليعانقها مرة أخرى ثم قال: «ولا تنسي أنك تتمتعين بإرادة حرّة. يمكنك أن تطلبي مني التوقف في أي وقت تشائين».

تطلب منه التوقف؟ فكرت نيكول بذلك غير مصدقة. إن أملها في ذلك كأمل كرة من الثلج بالحياة في جهنم.

www.elromancia.com

خاتمة

لطالما بدت القلعة رائعة الجمال مليئة بالسحر خلال الليل. راحت ألسنة النيران تتراقص في الموقد المكوّن من الحجارة الرملية الحمراء. أخذت نيكوليت تتأمل وجه ابنها زيد ذي السنوات الأربع، وقد اتسعت عيناه الكبيرتان الخضراوان عندما راح مالك يضع المزيد من الحطب في النار، فتطايرت شرارات برتقالية اللون في السماء الداكنة.

راح مالك يقص الحكايات والأخبار عن أجداده الأقوياء في بَرَكة. فأخبرهم عن المعارك التي حققوا فيها انتصارات وتلك التي هزموا فيها وهم يقاتلون في هذه الجبال الوعرة. كانت نيكول جالسة على السجادة الصوفية الحمراء، وقد جلس ابنها عادل ذو السنتين في حجرها. شعرت بالصبي يضغط وجهه على جسمها، فيما راح قلبه يخفق بسرعة في صدره، فرمقت زوجها بنظرة ساخطة. في الواقع، كان زوجها أشبه بالأطفال، فهو يحب أن يحضر الولدين إلى زفد، ويحب قضاء السهرات في الخارج حول النيران، فيحيا برفقتهم حياة البدو الرحل بدلاً من حياة الملك وأبنائه التي تتميز بالسلطان والجاه.

همست نيكول من فوق رأس الصبي الصغير: «أنت تخيفهم بتلك القصص».

– نحن الآن حول نار المخيم، وهذه الحكايات ملائمة لهذه السهرات.

– لكنهما ما يزالان ولدين صغيرين.

علا العبوس جبينه ورمق زيد ثم عادل بنظرات حانية، فيما تطاول هذا الأخير لينظر إلى والده من خلف ذراع أمه. وسأل مالك الولدين: «هل أتوقف عن سرد القصص؟».

هتف زيد على الفور: «كلا، كلا».

وبالطبع بادر الصغير عادل إلى التعبير عن موافقته، محاولاً أن يقلّد أخاه، فيظهر الشجاعة كما يفعل زيد.

تأوهت نيكول في سرّها. مالك يعلم أنها على حق ولا حاجة به لأن يسأل الولدين. لكن الرجال هم الرجال ولن يتغيّروا أبداً، مع العلم أنها لا تريده أن يتغيّر. إنها تحبه كما هو وتحب أن تراه هكذا.. مسترخياً، سعيداً هنا في زفد. عندما يكونون هنا في القلعة معاً، كما هم الآن، يبدو مالك متخلياً عن حذره. وها هو الآن يبدو أكثر شباباً وأكثر ارتياحاً كالصبيين تماماً.

إنه يحتاج إلى هذه الإجازة، كما فكرت وقلبها يشعر باللهفة عليه. كان يجدر بهم أن يقوموا بهذه الرحلة منذ أشهر خلت. على أي حال، ها هم الآن هنا على الأقل. وها هو مالك يبتكر القصص لتسلية الولدين وقضاء الوقت برفقتها. أما نيكول، فتعلم أنه قام بالكثير من أجلها، لكن ما من شيء أفضل من وجود ولديهما في حياتهما. فالولدان جعلا حياتها ومالك تغدو مكتملة.

مرّرت يدها على رأس عادل الصغير. ما زال شعره الأسود ناعماً كالحرير، تتدلى خصلاته المجعدة حتى كتفيه تقريباً. يوماً ما، سوف تقص هذه الخصلات ويغدو الطفل الصغير شاباً.

راحت تصلّي في سرّها؛ يا رب لا تدع الزمن يجري بسرعة... دعه يسير ببطء، دعنا نتمتع بالعيش معاً أطول وقت ممكن...

والتقت نظرات مالك بنظراتها، وكأنه قرأ أفكارها من خلال عينيها، فقال: «أنت تحبين ولديك».

امتلأ صدرها بدفء حلو مشوب بمرارة، وقالت: «بل أنا أحب أولادي جميعاً».

وها هي حطبة أخرى تضاف إلى النار فتندفع موجة من الشرر متطايرة في الهواء. عادت نيكول بأفكارها لسنوات خمس خلت. إنها تدرك الآن أنه لم يكن باستطاعتها تغيير أي شيء في حياتها أو في زواجها. مالك هو الشخص المناسب

لها، إنهما يمثلان اتحاد القوة، والذكاء، والعاطفة المشبوبة. لقد أدخل مالك البهجة إلى حياتها، ولم يدعها تشعر بالملل لحظة واحدة. والأهم من ذلك كله أنه علّمها بأن المرء يجب أن يقبل أحياناً بالخسارة، لكي يفوز بما هو أفضل.

www.elromancia.com
مـــرمـــوديـــة